الفقيه المجدِّد سماحة العلّامة المرجع
السيّد محمد حسين فضل الله ﷺ



الوحدة الإسلاميّة
خطوات نحو التطبيق

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين (ع)



الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م

إصدار المركز الإسلامي الثقافي

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٥٥٧٠٠٠/ ٠١ ـ ٥٤٤٤٠٢/ ٠١

خليوي: ٥٦٥٠٧٤/ ٠٣

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

info@tawasolonline.net

info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.tawasolonline.net

www.fadlullahlibrary.com

youtube/tawasolonline

Facebook:

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة

تواصل أون لاين

الفقيه المُجدِّد سماحة العلّامة المرجع
السيّد محمد حسين فضل الله

الوحدة الإسلاميّة
خطوات نحو التطبيق

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام
لبنان - حارة حريك



المقدّمة

إنّ من الممنوعات التي تسوّقُ وتَرسمُ لها الخططَ الدوائرُ الاستكبارية، هي مسألة الوحدة بين المسلمين.. لأنّ الوحدة عاملٌ من عوامل تأصيل الهوية، وبالتالي عاملٌ أساس في التفاف المسلمين بكلّ أطيافهم حول إسلامهم، وفي ذلك إلغاءٌ لكلّ الأدوار التي تحاول النيل من الوجود الإسلامي الكبير وذلك من خلال مصادرة ثرواته، وتفتيت كياناته، وإضعاف وجوده، وزرع بذور الشقاق، واستنفار العصبيّات فيما بين أفراده... ومن هنا، يرى السيد فضل الله (رضوان الله عليه) أنَّ إسقاط كلّ هذه المشاريع، لا يكون إلاّ بالوحدة، وليس ذلك أن يصير الشيعيُّ سنّياً أو أن يصبح السنيّ شيعياً، بل أن يتفق الجميع على أنّ إسلامهم واحد، وعدوّهم واحد.. وأنّ من واجبهم جميعاً علماء ومثقفين وأهل رأي ومشورة أن يلتفّوا حول الإسلام ليحقنوا دماءهم وليحصّنوا أرضهم، وليحقّقوا لأمّتهم الرخاء الاقتصاديّ والاجتماعيّ، وبذلك يكونون فعلاً ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾، وليس معنى ذلك أنّ الوحدة بين المسلمين، تُبعدهم عن الأطراف الأخرى وخصوصاً المسيحيين الذين هم أقرب الناس ﴿**مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ**﴾..

وفي ظلّ الحمى الطائفية والمذهبيّة والعصبيّة التي تغذّيها الأطراف كافة،

ينطلق صوت السيد (رضوان الله عليه) محذّراً ومنبّهاً من خطورة ذلك، وطارحاً مشروع الوحدة الإسلامية مخرجاً وحيداً من الفوضى التي تتخبّط فيها الأمة..

ولأهمية هذا الموضوع قمنا في المركز الإسلامي الثقافي ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام، بإعادة نشر هذا البحث، الذي نُشر سابقاً في كتاب (أحاديث في قضايا الاختلاف والوحدة) لسماحة السيد (رضوان الله عليه) الصادر عن دار الملاك في بيروت، سائلين المولى تبارك وتعالى أن ينتفع به العاملون للإسلام، المخلصون الذين تعيش الرحمة في قلوبهم، والألفة في نفوسهم، والرحمة في وجدانهم..

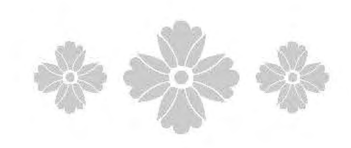
والله وليُّ التوفيق

مدير المركز الإسلامي الثّقافيّ

شفيق محمّد الموسوي

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ

كانون الثاني ٢٠١٣ م





الاتجاهات المتعدّدة في النظر إلى مسألة الوحدة

للحديث عن «الوحدة الإسلامية» في حياة العاملين للإسلام طعمُ الحُلُم الكبير، وذلك بالنظر إلى المشاكل الكثيرة التي يُعاني منها المسلمون، بسبب حالة التمزّق التي يعيشونها، سواءً بين المذاهب أو بين الطوائف، وبفعل ما يعيشونه من خصومات ومشاحنات، تؤدّي بهم إلى المزيد من الضعف السياسي والاجتماعي والعسكري والاقتصادي، وإلى الشعور بانقسام الشخصيّة إلى شخصيّات متعدّدة، تتقوقع كلّ واحدة منها داخل إطار مغلق، ما يجعل تفكيرها مستغرقاً في الحالة الطائفيّة، بعيداً عن الشخصيّة الإسلامية المنفتحة.

وقد استطاع هذا الواقع أن يُبعد الإسلام عن حركة الحياة، وأن يُخضع المسلمين لقوى الاستعمار والاستكبار التي استخدمت نقطة الضعف هذه، فحوّلت البلاد الإسلامية إلى ما يشبه أحجار الشطرنج التي تلعب بها كما تشاء وتحرِّكها كما تريد، وسيطرت على كلّ مقدّرات المسلمين، وأبعدت حركة الحكم والتشريع في حياتهم عن الأسس الإسلامية، وجعلتهم يعيشون إسلامهم ضمن دوائرَ تاريخيّةٍ وعمليّة ضيّقة، يختزنون في داخلها كلّ ما يملكون من حساسيّات وأحقاد وسلبيّات، وهيّأت لهم ـ في كلِّ مرحلة من مراحل نموّهم ـ عوامل التّفتيت والضعف والتقسيم، وقادتهم إلى حروب طائفيّة لا يملكون معها

إلاّ أدوات التدمير والتقتيل لبعضهم البعض.

وهذا ما دفع الواعين من الأمّة إلى طرح شعار «الوحدة الإسلاميّة» كهدف إسلاميٍّ كبيرٍ يعملون له بأساليبَ متنوّعةٍ، ويثيرون من خلاله أمام الوحدة المشاكل الصعبة التي تؤدّي إلى الانقسام في حياتهم العامّة والخاصّة، في مقابل النتائج الإيجابية التي يحصلون عليها من خلال الاتحاد أو التعاون أو الوحدة.

الوحدة بين الأطروحة المثالية والواقعية

لقد اختلفت الأطروحات حول الوحدة، فهنا الأطروحة المثالية التي تواجه المشكلة بالرّوح الغيبيّة الضبابيّة، التي تحاول إبعاد المشاكل الحيّة عن تفكير الأمّة، بالإيحاء بأنّه لا خلافات صعبة بين المسلمين، وأنّ علينا تناسي القضايا الهامشيّة، والوقوف صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء. وهكذا يغرق الإنسان المسلم في ما يشبه الأحلام، في أجواء عاطفيّة، فيستسلم لهذا الخَدَر اللّذيذ، ثمّ يرجع إلى واقع حياته اليومية، فيجد أمامه أكثر من مشكلة حادّة، وأكثر من خلاف متحرّك في عمق ممارساته وعلاقاته.

وهناك الأطروحة الواقعية التي تؤكّد على مَوَاطن اللقاء، كما تؤكّد على مواطن الخلاف، ولكنّها لا تضع مَوَاطن الخلاف في الجانب الذاتي الشعوري للأمّة، بل تضعها في الجانب الفكريّ من نشاطها، وتوحي، في هذا الاتجاه، بأنّ مثل هذه الخلافات ليست مقصورة على الفئات الكبيرة من المسلمين فيما بينها، بل هي موجودة في داخل كلّ طائفة أو مذهب وفي أكثر من جانب فقهيٍّ أو كلاميٍّ، ثم تثير أمام المسلمين قواعد الحوار القرآني التي تدفع بالأمّة لأن تناقش قضاياها في الداخل والخارج من موقع التفكير الموضوعي الهادئ الهادف إلى معرفة الحقيقة من أقرب طريق بالحُجّة والبرهان الواضح، وتقود المسلمين إلى

الأسلوب الأخلاقيّ في الحوار الذي لا يستخدم كلمات السباب والشتائم في حركة الخلاف، بل يتحرّك من موقع الجدال بالأسلوب الأحسن وبالتي هي أحسن، بحيث يدفع بالأعداء الى أن يتحوّلوا إلى أصدقاء يحملون مشاعرَ روحيّةً عاليةً في الاهتمام بشؤون المسلمين، وليتوجّهوا إلى الله أن يساعدهم على جمع الكلمة ولمِّ الشَّعَثِ وحقن الدماء.

وقد عاش المسلمون تجارب الوحدة على أكثر من صعيد، سواء في التجارب الثقافية التي أكّدت الآفاق الوحدوية في الثقافة الإسلامية، وعملت على إرجاع الخلافات إلى أسس فكرية تتّصل بالمصادر الإسلاميّة، كالكتاب والسُّنة وأمثالهما، في أسلوب إيجابي يركّز على الطابع الاجتهادي العلمي لهذا الخلاف، أو في التجارب الاجتماعيّة والسياسيّة التي دعت إلى تشكيل أرض إسلامية واحدة في ما يعيشه المسلمون من قضايا اجتماعيّة وسياسيّة مشتركة.

على أنّ هذه التجارب اصطدمت بأكثر من عقبة، بفعل ما واجهته من مشاكل الرواسب التاريخيّة، والعقد النفسيّة، والأوضاع الاستعماريّة التي تثير السلبيات، وتعقّد الأوضاع، وتخلق الأزمات على أكثر من صعيد... وما تزال القضيّة تتفاعل لتضع في كلّ يومٍ عقبة جديدة ومشكلة جديدة.

ولنناقش هذا الموضوع من ناحيتين:

الناحية الأولى: نظرة المسلمين الشيعة إلى الوحدة.

الناحية الثانية: نظرة المسلمين غير الشيعة إلى الوحدة مع الشيعة.

نظرة المسلمين الشيعة إلى الوحدة

أمّا من الناحية الأولى، فإنّ هناك اتجاهين في نظرة الشيعة إلى الوحدة:

الاتجاه الأول: يرى أنّ مشروع الوحدة يعمل على تذويب الشيعة في المحيط الإسلامي العام ويؤدّي إلى فقدان الركائز الأساسية لفكرة التشيّع، وهي الإمامة، وما يتبعها من قضايا فكريّة وشرعيّة، فيتحوّل الشيعة، بفعل ذلك، إلى سُنّة، وبذلك لن تكون عملية الوحدة إلاّ أسلوباً من أساليب احتواء فئة من المسلمين لفئة أخرى، لا عملية جمع للمسلمين على أساس الحقّ. ويضيف هؤلاء: إنّنا قد نوافق على عمليّة التذويب والاندماج إذا كانت القضيّة هامشيّة طارئة، يمكن للإنسان أن يتجاوزها كما يتجاوز الكثير من القضايا الحياتيّة الطارئة للمحافظة على المصلحة العامّة، ولكنّ القضيّة تمثّل، في وعينا الفكريّ، قضيّة التزامنا الإسلاميّ بخطّ الحقّ في العقيدة والتشريع، لاتصالها بمسألة الإمامة، وهي ليست مسألة شخص أو أشخاص، أو موقف سياسي معين، بل هي مسألة القاعدة الشرعية التي ارتكزت إليها القناعة من الدليل والبرهان، فلا يمكن للإنسان أن يتنازل عنها، انطلاقاً من تسوية خاضعة لأوضاع معينة.

وهكذا كانت نظرة هذا الاتجاه إلى مسألة الوحدة، نظرة سلبية تحمل الكثير من الحذر والخوف والشك والارتياب.

الاتجاه الثاني: يرى أنّ مسألة الوحدة ليست مسألة إدخال الشيعة في محيط السُّنّة، أو العكس، بحيث تستهدف إدماج وتذويب الشخصية الفكرية الخاصة التي يحملها كلّ واحد منهما، بطريقة عاطفيّة، بل هي مسألة روحيّة نفسيّة في البداية، كما هي مسألة فكريّة علميّة في النهاية، لأنّ قاعدة التفكير الوحدوي ترتكز على أساس الإيحاء للمسلمين بضرورة التمسّك بالروحيّة الإسلاميّة التي ينبغي أن تطبع شخصيّتهم، في ما تمثّله الشهادتان من عقيدة والتزام وحركة في

حياتهم العامة والخاصة مهما اختلفت نظرتهم إلى التفاصيل، الأمر الذي يثير فيهم مشاعر الوحدة، ويحلّق بهم في آفاقها، ويوحي لهم بمسؤولياتها، لتكون هذه الروحية سبيلاً من سُبل اللقاء الذي يساعد على التفاهم والتحاور والتعاون، فيمكن للشّيعيّ أن يقنع السنّي بطريقته في فهم الإسلام، وفي ممارسته، كما يمكن للسنّي هو أيضاً أن يقنع الشيعيّ بطريقته وبممارسته، ويمكن لهما أن يكتشفا، من خلال اللقاء الفكريّ، سبيلاً آخر.

ويضيف أصحاب هذا الاتجاه قائلين: إنّ النتائج الإيجابية التي يحصل عليها المسلمون الشيعة في مسألة الوحدة، لا تُقاس بالنتائج السلبية التي يعيشونها في مسألة الفُرقة والخلاف الفكريّ والعمليّ الذي يتحرّك من موقع العقدة الذاتيّة لا من موقع المصلحة العامّة.

ويرون أنّ حركة أيّ صاحب فكر تتعاطى مع المحيط العام بروحيّة منفتحة إيجابية، قد تستطيع أن تحقّق لفكرها الكثير من المواقع المتقدّمة من خلال ما تملكه من حريّة وانفتاح، ما لا تستطيع أن تحقّقه في إطار الحدود الفاصلة التي تفصل بين هذا الفريق أو ذاك، لأنّ هذا الفصل يوحي لكلّ منهما بالحاجة إلى الاستعداد المسبق لتحصيل المناعة ضدّ إمكانات التأثّر بالفريق الآخر، وبالتالي لإيجاد حاجز نفسي ضدّ أيّ شيء يثيره الفريق الآخر، من أفكار وطروحات وحلول، ما يجعل المسألة بينهما هي كيف يمكن أن يسجّل هذا نقطة ضدّ الأفكار التي يثيرها ذاك، لا كيف يناقشها وينظر في طبيعتها الفكرية من حيث الخطأ والصواب.

وينتهي أصحاب هذا الاتجاه إلى الفكرة التي تقول: إنّنا، كشيعة، يمكننا إقناع المسلمين الآخرين بصحّة أطروحتنا الفكريّة في فهم الإسلام، فيما نعتقد أنّه الحقّ، من خلال ما نملك من أدلّة وبراهين، وذلك في نطاق الوحدة، أكثر مما نستطيع ذلك في ظلّ الوضع الطائفيّ الحاقد.

نظرة المسلمين غير الشيعة إلى الوحدة

أمّا من الناحية الثانية، وهي نظرة المسلمين غير الشيعة إلى الوحدة مع الشيعة، فهناك ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: ينظر إلى الشيعة بأنّهم خارجون على الإسلام في ما ينسبه إليهم من عقائد الغلوّ والشرك وتحريف القرآن أو إيمانهم بقرآن آخر غير هذا القرآن، وما إلى ذلك من مفاهيم لا تلتقي مع الأسس العقيدية التي ركّز الإسلام عليها فكره وشريعته، وبذلك لا معنى لطرح قضيّة الوحدة معهم، التي يجب أن تطرح مع المسلمين لا مع المنحرفين عن خطّ الإسلام، كما أنّ إقحامهم في داخل المجتمع الإسلامي، يمثّل لوناً من ألوان الخطر على صفاء العقيدة الإسلاميّة وعلى سلامة المجتمع الإسلامي، وذلك من خلال ما يثيرونه من شبهات وأضاليل ومؤامرات على الإسلام والمسلمين.

وهذا الاتجاه يتمثّل في الأغلب بالطريقة السلفيّة الوهابيّة، التي عملت على تعميق الهُوّة بين السنّة والشيعة، بمختلف الأساليب الإعلامية، والضغوط المادية والمعنوية، وحاولت أن تستغل الإمكانات الماديّة والرسميّة في تشوية صورة الشيعة لدى المسلمين وغير المسلمين، حتى رأينا القائمين عليها يتسامحون مع الاتجاهات الكافرة بما لا يتسامحون فيه مع الشيعة، لأنّهم يَرَوْنَ أنّ الكفر المقنّع الذي يمثّله الشيعة، هو أكثر خطورة من الكفر الصريح الذي يمثّله الكافرون الصريحون، كما أنّهم عملوا ـ في سائر أنحاء العالم ـ على عزل شباب المسلمين السنّة، بما فيهم العاملون في خطّ الإسلام الحركي، عن شباب المسلمين الشيعة، لمنع أيّ تعاون فكريّ أو سياسيّ أو اجتماعيّ فيما بينهم، مهما بلغت التحدّيات العمليّة ضدّ الإسلام والمسلمين، وقد تداخلت لدى هؤلاء الخلفيّات المذهبية بالخلفيّات السياسية في ما يخافونه على مراكز نفوذهم في المجالات التي يملكون فيها أسباب السلطة والسلطان.

ولعلّ مشكلة هذا الاتجاه، أنّ أصحابه يرفضون الحوار حول القضايا المختلفة التي يعتقدون انطلاق المذهب الشيعي منها، لتصحيح نظرتهم في طبيعة هذه القضايا، سيما وأنّ كثيراً منها قد تكون نسبتها إليهم غير صحيحة.

الاتجاه الثاني: لا يرى في الشيعة هذا الرأي، بل يرى أنّهم مسلمون في ما يرتكز عليه الإسلام من عقيدة وشريعة، وأنّ الخلافات بينهم وبين السُّنّة كالخلافات بين السُّنّة أنفسهم في بعض تفاصيل العقيدة والشريعة، فهم مسلمون مخطئون في بعض ما يعتقدون، فحالهم حال أيّ مسلم مخطئ في اجتهاده، فإنّ الخطأ لا يُخرجه عن إسلامه، بل يكون مسلماً خاطئاً مأجوراً.

ولكنّ أصحاب هذا الرأي لا يَرَوْنَ مصلحة في الوحدة مع الشيعة، لأنّ هذه الأفكار الخاطئة قد تنفذ من خلال مجتمع الوحدة إلى ذهنية المسلمين من أهل السنّة، فتسيء إلى الأفكار السليمة الصحيحة الصافية، كما أنّ طبيعة الأوضاع الشيعيّة، في ما تمثّله من خلفيات سياسية معينة، قد تسيء إلى مستقبل الأمة.

وربّما يلتقي هذا الفريق مع فريق الاتجاه الأول في أساليب العمل ضدّ قضية الوحدة، ولكنّهم يُمارسون أساليب المجاملة، في ما تقتضيه اللّياقات الاجتماعية، أو المصالح السياسية، عندما يطرحون قضيّة الوحدة، تماماً كما يمارسها الاتجاه الشيعي الذي يقف موقفاً سلبياً من الوحدة، عندما يطرح الوحدة كشعار في الحالات الطارئة، ولكن بحذر شديد وبدون إخلاص أو إيمان بذلك.

ولعلّ الواقع الذي يعيشه جمهور المسلمين من أهل السنّة يعيش عمق هذا الاتّجاه ولكن بدرجات متفاوتة.

الاتجاه الثالث: ينطلق في حركته من موقع الإيمان بوحدة المسلمين الواقعية، في ما يلتقي عليه المسلمون من عقائدَ ومفاهيمَ وشريعةٍ، وبأنّ الخلافاتِ في ما

يختلفون فيه، لا تضرّ بهذه الوحدة، كما لم تضرّ خلافات المذاهب بين بعضها البعض في وحدتهم الإسلامية. وعلى هذا الأساس، رأى أصحاب هذا الاتجاه في الوحدة أمراً واقعياً في عمق الشخصية الإسلاميّة، يتطلّب تحويله إلى خطوة عمليّة في حركة الإسلام في الحياة، وحالة شعوريّة في داخل وجدان المسلم، وهم يعتبرون أنّ دخول أيّ فريق في المجتمع الإسلامي، لا يمثّل خطراً على ما يعتقد الفريق الآخر أنّه الحقّ، ما دامت القضايا المتنازَع عليها تعيش في داخل الأجواء التي تثيرها القضايا المتفق عليها، وما دام المنطق الفكري القائم على الحُجّة والبرهان هو الذي يحكم الحوار في الساحة، ما يجعل الموقف في مصلحة الفريق الذي يملك الحُجّة الأقوى، والمنطق الأفضل، وليست هناك أيّة مشكلة لأيّ فريق في ما يخسره من أفكار قد يثبت له أنّها خاطئة من خلال الحوار، ما دامت الروحية الجديدة التي تحكم مساره هي روحيّة الإسلام الصافي الصحيح بعيداً عن أيّ إطار آخر.

ويتمثّل هذا الاتجاه في الحركات الإسلامية الواعية غير الخاضعة لعقلية الأنظمة المرتبطة بالاستعمار، وفي الشخصيّات الفكريّة المسلمة التي تعيش مسؤوليّة الإسلام من خلال الآفاق الرحبة الواسعة، لا من خلال الآفاق الضيّقة الخانقة.

وقد ساهم أصحاب هذا الاتجاه في خلق جوّ وحدويّ عام، وفي صنع مجتمعات متنوّعة هنا وهناك تعيش روحية الوحدة بانفتاح وإيمان، وذلك من خلال اللّقاء بالاتجاه الثاني الموجود في مجتمع المسلمين الشيعة، الذي يرى في الوحدة عنصراً إيجابياً في حركة الإسلام العامة. وقد انطلقت هذه الحركة الوحدويّة بقوّة مواكبة لحركة الثورة الإسلاميّة في إيران التي طرحت شعار الوحدة الإسلاميّة كهدف كبير لا بدّ للمسلمين أن يجتمعوا حوله من أجل تحويله

إلى حركة واقعية حيّة، وذلك باعتماد الأساليب المَرِنَة الحكيمة التي تعمل على الوصول إلى الهدف بالطريقة المرحليّة المرتكزة على التخطيط الدقيق في حركة المراحل نحو الهدف.

ولا يزال الصراع حول الوحدة قائماً بين أصحاب هذه الاتجاهات المختلفة في نطاق الشيعة والسنّة، وما تزال الساحة تمتلئ في كلّ يوم بالجديد من النتائج السلبيّة والإيجابيّة في هذا الخطّ أو ذاك، ممّا يعتبره كلّ اتجاه منها دليلاً له أو عليه، وما يزال المستقبل الإسلامي ينتظر النتائج النهائيّة لهذا الصراع، ليلتقيَ بالوحدة الإسلاميّة كنتيجة إيجابيّة للوعي الإسلاميّ الجديد.

خطوات ضروريّة على طريق الوحدة

والآن.. ومن جديد.. ماذا عن الشيعة.. والوحدة؟

إنّنا نتبنّى اتجاه السير في حركة الوحدة الإسلاميّة، ونرى أنّه السبيل الأمثل لانطلاقة الإسلام في العالم، الأمر الذي يمثّل النهج الشرعيّ للسير العملي للإنسان المسلم في ما يُرضي الله، ويُقرّب إليه، كما يمثّل النهج الواقعي لاستعادة سيطرة الإسلام على الحياة، وتحقيق العزّة والكرامة للمسلمين، في جميع مجالاتهم السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وذلك على أساس عدّة نقاط:

إنّ مشروع الوحدة الإسلاميّة ليس مشروعاً استعراضيّاً عاطفيّاً، يرمي إلى إلغاء المواقف الفكريّة بحركة انفعاليّة سريعة، بل هو مشروع يرمي إلى تكوين عقليّة موضوعيّة هادئة تناقش المواقف الفكريّة بهدوء واتّزان ومسؤوليّة، لتكون الساحة للأفضل والأقرب إلى الحقيقة الإسلامية من قاعدة الحجة والدليل، وبذلك فإنّها تلغي الخوف من الاحتواء من خلال تأمين الضمانات العملية للوصول إلى ذلك الهدف.

إنّ الانطلاق من صفة الإسلام في أيّ تحرّك فكريّ أو عمليّ، هو الذي يحقّق لأيّ فريق إسلامي القدرة النفسية على مواجهة أيّة قضيّة فكريّة أو شرعيّة، بجدّية الاهتمام، وبسعة الأفق، ورحابة الصدر، والبُعد عن التشنج وإثارة الحساسيّات الذاتيّة، لأنّ القضيّة عنده ـ في مجملها ـ هي ماذا يقول الله ورسوله، وما يقوله الإسلام من خلال ذلك، بعيداً عن كلّ مألوف أو موروث، فإمّا أن تكون هذه المسائل الشرعية والفكرية ثابتة بالطرق الصحيحة الاجتهادية فتُقبل، وإمّا أن تكون غير ثابتة فتُرفض، وهذا هو الذي يوحي بتغليب الصّفة العامّة على الصّفة الخاصّة، أو تأكيد الصّفة الخاصّة بمقدار انسجامها مع أجواء الصّفة العامّة.

وقد يكون من الطبيعي أن نركّز على دور التربية السليمة في الحصول على هذا الأسلوب في بناء الشخصية الإسلامية، فيجد السنّي صفة السنّية كوجهة نظر في فهم الإسلام، كما يجد الشيعيّ صفة الشيعيّة منهج فكر في فهم الإسلام، وبذلك تتحوّل الخصوصيّة إلى وسيلة فكريّة لفهم الفكرة العامّة.

أن تتحوّل صيغة الأبحاث الفكريّة القائمة على مناقشة الأفكار الإسلامية المختلفة، من صيغة تتّخذ صفة الهجوم والدفاع التي تثير في داخلها ومن حولها أجواء الحماس والانفعال، عند تسجيل نقطة هنا ونقطة هناك، إلى صيغة تأخذ شكل البحث والتحليل الدقيق للقضايا المطروحة في البحث، لأنّ هذه الصيغة توحي بانطلاق البحث من مصادره الأصيلة بطريقة هادئة موضوعيّة تلتقي بالفكرة، أمام احتمالين يتحرّكان في نطاق وِجْهَتَي نظر متنوّعة، وبذلك يمكن الوقوف معهما أمام الجذور العميقة للفكرة، ليُعرف في نهاية المطاف، كيف يلتقي هذا أو ذاك بالجذور، ليكون هذا هو الوجه الصحيح للفكرة، بعيداً عن أن يكون هذا الاحتمال وجهة نظر زَيْد أو وجهة نظر عَمْرٍو، وهذا هو المنهج القرآني الذي ركّز على الموضوعيّة والحكمة والطريقة التي هي أَحسن، والانطلاق من مواقع اللّقاء إلى مواطن الخلاف.

أن يعمل الشيعة على توضيح الخطّ الإسلامي الأصيل، في ما يعتنقونه من أفكارٍ ومفاهيمَ في جانب العقيدة، أو في نطاق الأشخاص أو في تفاصيل الشريعة، وذلك بالأساليب المتحرّكة في ساحة الصراع، وبالعمل على كتابة ذلك بطريقة واضحة صريحة، وأسلوب علمي لا تعقيد فيه، وتسهيل وصول النشرات المتضمّنة لهذه الأفكار إلى كلّ مكان في العالم، من أجل تطويق الدعايات المضادّة التي تعمل على تشويه الصورة الإسلاميّة لفكرة التشيّع، لا سيّما ما يتعلّق بالموازين الإسلاميّة لفكرة التوحيد والشرك، والغلوّ والاعتدال في الأشخاص، وقضية تحريف القرآن، أو موضوع مصحف فاطمة، وعصمة الأئمّة، وما إلى ذلك من الأمور التي يُراد إثارتها من أجل إبقاء الهُوّة عميقة بين الجماهير الإسلامية، من السنّة والشيعة.

أن نعمد من جديد إلى غربلة العقائد والعادات والفتاوى الشائعة لدى الأمّة، من أجل إخضاعها للمقاييس الفنيّة الاجتهاديّة في فهم الكتاب والسنّة، وفي تقويم الأحاديث في صحّتها وضعفها، انطلاقاً من دراسة شخصيّة الراوي ومتن الرواية، لأنّنا نلاحظ أنَّ كثيراً من القضايا التي يحملها الناس في أفكارهم، لا ترجع إلى مصادر اجتهاديّة صحيحة، بل إلى التسامح في القضايا التي لا تمثّل حكماً شرعياً، كقضايا الثواب أو العقاب أو الفضائل أو غير ذلك من الأمور، ممّا قد يرويه الوضّاعون والغلاة والضعفاء الذين لا تقوم برواياتهم حُجّة في دين أو دنيا.

إنّ ذلك هو السبيل للوصول إلى الإسلام الصحيح في كلّ المفاهيم الفكريّة والأحكام الشرعيّة الإلزاميّة وغيرها، لأنّ أيّ مفهوم وأيّ حكم إنّما هو جزء من الإسلام، فإذا انحرفت الصورة فيه، انحرفت الصورة الإسلاميّة في وعي الإنسان المسلم.

ولا يقتصر هذا الأمر على الشيعة وَحْدَهم، بل يعمّ السنّة أيضاً، في ما لديهم

من تركة ثقيلة من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي كوّنت مفاهيم متنوّعة غير إسلامية في مصادرها الأصيلة.

أن نعمل على تشجيع اللّقاءات بين الفعاليات الإسلاميّة العلميّة، من السنّة والشيعة، من أجل إيجاد علاقة حميمة فيما بينها من جهة، وتحويلها إلى علاقة علميّة فكريّة يتمّ فيها التعارف والتلاقي بين الأفكار، ثمّ الحوار العلميّ الهادئ من جهة أخرى، ليعيَ كلّ منهما الطريقة التي يفكّر بها الآخر، ليعرف أنّه لا يتحرّك من موقع الرغبة في الخطأ من قاعدة الخطأ، بل يتحرّك من موقع الإخلاص للحقّ من قاعدة الحقّ، حتى لو أخطأ طريق الوصول، وبذلك يعرف الفريقان أنّهما يخطئان، إذا أخطأا، من موقع اجتهادي، كما يصيبان، إذا أصابا، من الموقع نفسه.

أن يعيش الشيعة في تحرّكهم السياسي من مواقع السياسة الإسلامية العامّة، لأنّهم لا يستطيعون الوصول إلى الأهداف الكبرى في الحرية والعزّة والاستقلال السياسي والاقتصادي إلاّ في الدائرة الإسلامية الكبيرة، لأنّ دروس الاستعمار قد علّمتنا أنّه يملك كلّ أوراق اللّعب في الدائرة الطائفيّة، بينما يفقد أكثر الأوراق في الدائرة الإسلاميّة، فلا مجال للتفكير بأنّ هناك قضيّة شيعيّة يمكننا أن نطرحها في الساحة الدوليّة، لأنّ الاستعمار سيطرح أمامها قضيّة سنّية، وبذلك يشغل الساحة بالنزاع الطائفي الذي يمهّد له السبيل للسيطرة على الموقف كلّه.

إنّ مثل هذا الخطّ قد يواجه مصاعب كثيرة في الساحة الفعلية، وذلك بفعل وجود أوضاع طائفيّة حادّة في المجتمع الإسلامي الآخر، الذي قد يُصوّر اندفاع الشيعة في الدائرة الإسلامية الكبيرة على أنّها حالة ضعف أو استضعاف، بهدف منع سلوك هذا التوجّه، أو استغلال ذلك لمصالح فئويّة خاصّة.

ولكنّنا نؤكّد هذا الخطّ على أساس الهدف الكبير الذي لا بدّ من طرحه في الساحة، لتوعيتها ودفعها للانطلاق بالقضايا الإسلامية في الفضاء الرحب

والهواء الطلق، على أن يتحرّك العاملون بسياسة المراحل التي تحمي الساحة من ردّات الفعل الصعبة التي قد تهدم البيت على رؤوس الجميع.

وأخيراً، إنّنا نعتقد أنّ الإخلاص للقضايا الكبيرة التي جعلها الله أمانة في أعناقنا، يقتضي منّا مرونة إسلاميّة بالغة، وهذا ما عشناه في الأسلوب العمليّ الذي أرادنا أهل البيت(ع) أن نسير عليه. ونجد أمامنا ـ في هذا المجال ـ أسلوب الإمام عليّ أمير المؤمنين(ع) في الفترة التي عاشها بين وفاة الرسول(ص) وخلافته، في ما حدّثنا عنه من أجوائها، وموقفه من تلك الأجواء، يقول(ع):

«فما راعني إلاّ انثيالُ النّاس على فُلان يبايعونه، فأمسكتُ يدي، حتّى رأيتُ رَاجِعةَ الناس قد رَجَعَتْ عن الإسلام، يدعون إلى مَحْقِ دين محمّد(ص)، فَخَشِيْتُ إنْ أنا لم أَنْصُرِ الإسلامَ وأهلَه، أن أرى فيه ثَلْماً أو هَدْماً، تكون المصيبةُ به عليَّ أعظمَ من فَوْتِ ولايتِكم، التي إنّما هي مَتَاعُ أيّام قلائلَ، يزولُ منها ما زالَ، كما يزولُ السرابُ، أو كما يَتَقَشَّعُ السّحابُ، فَنَهَضْتُ في تلك الأحداث حتّى زاحَ الباطلُ وزَهَق، واطمأنّ الدينُ وتَنَهْنَه»[1].

وكما في قوله(ع) عندما سمع قوماً من أهل العراق يسبّون أهل الشام:

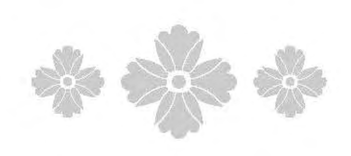
«إنّي أَكْرَهُ لكم أن تكونوا سَبَّابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أَصْوَب في القول، وأَبْلَغَ في العذْرِ، وقلتم مكانَ سبِّكم إيّاهم: اللّهم احقِنْ دماءَنا ودماءَهم، وأَصْلِحْ ذاتَ بينِنا وبينِهم، واهْدِهم من ضلالتهم، حتّى يَعْرِفَ الحقَّ مَنْ جَهِلَهُ، ويرعويَ عَنِ الغَيِّ والعُدوان مَنْ لَهِجَ به»[2].

وقول الإمام الصادق(ع) في حديث عن معاملة الشّيعة لبقيّة المسلمين: **«صلّوا في عشائرِهم، واشهدوا جنائزَهم، وعودوا مرضاهم، وأَدُّوا حقوقَهم، فإنّ**

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الكتاب: ٦٢، ص:٣٣٩-٣٤٠.
(٢) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ٢٠٦، ص٢٣٦.

الرجلَ منكم إذا ورع في دينه، وصدق في حديثه، وأدّى الأمانة، وحَسُنَ خلقُهُ مع الناس، قيل هذا شيعيّ، فيسرّني ذلك. اتّقوا الله، وكونوا زَيْناً ولا تكونوا شيناً»[1].

إنّ هذه الكلمات وأمثالها تثير فينا الروح الإيجابية في مواجهة الأخطار الكبيرة التي تواجه الواقع الإسلامي. ونحن لا نعتقد أنّ الأخطار التي واجهت الإسلام والمسلمين في عهد الخلفاء، والتي تعاطى معها الإمام علي(ع) بروحيّة اللّقاء والتعاون لتحقيق مصلحة الإسلام العُليا، هي أشدّ من الأخطار التي تواجه الإسلام الآن، بل نعتقد أنّها أشدّ من الماضي، وذلك هو وَحْدَهُ الذي يفرض علينا الانفتاح على الساحة الإسلاميّة الكبرى، لنكون جُزءاً من الأمّة في قضاياها الكبيرة، لنلتقيَ عندما نلتقي من موقع الإسلام، لمصلحة الإسلام، ولنختلف عندما نختلف من موقع الإسلام، لمصلحة الإسلام، ولنعطيَ قضيّة الإسلام كلّ ما عندَنا من فكر وحركة وجهاد وإيمان، ولنستجيب لنداء الله: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء : ٩٢].



(١) بحار الأنوار، ج:٧٨، باب: ٢٩، ص: ٣٧٢، رواية:١.



المعالجات القاصرة لمسألة الوحدة

الوحدة بين واقعية الفكرة ومأساة الانفعال

الوحدة، في كلّ حركة اجتماعيّة أو سياسيّة أو دينيّة، هدف كبير حميم يعمل القائمون عليها من أجل تجسيدها واقعاً حيّاً بكلّ سبيل من السبل المطروحة في الساحة، وقد يندفع الكثيرون منهم في هذا الاتجاه بإثارة المشاعر واستخدام الكلمات والأساليب العاطفية التي تثير الانفعال وتحرّك الموروثات، حتى تتحوّل القضيّة عندهم إلى شعار مثير بدلاً من أن تكون مشكلة تبحث عن حلّ، أو قضيّة تحتاج إلى التفكير، الأمر الذي قد يؤدّي إلى بعض الطروحات المرتجلة السريعة التي تعتمد على تحضير الأجواء الاستعراضية، من خلال الحديث أن لا خلاف بين الأطراف الساعية للوحدة ولا نزاع إلاّ في بعض القضايا الهامشيّة التي لا قيمة لها، أو عبر إبراز صور مثيرة يتمثّل فيها الطرفان أو الأطراف على طريقة تشابك الأيدي، وتبادل القُبُلات والعناق، أو في إعطاء صيغة عامّة لا تحدّد شيئاً، بل تترك الموضوع خاضعاً للعموميّات الفضفاضة التي تُغرق الجوّ في المثاليات بعيداً عن حركة الواقع.

وقد عانى الواقع العمليّ كثيراً من هذه الأساليب العاطفيّة المرتجلة، رغم أنّها حوّلت الفكرة إلى مأساة، عندما تحوّلت في ممارسات أصحابها إلى ملهاة،

فشعار الوحدة أضحى وسيلة من وسائل الإثارة الجماهيرية، بحيث تعتمد على ما تختزنه الشعوب من عواطفَ تُجاه قضاياها، ما يجعل من إثارة هذه القضايا عنصراً من عناصر الإلهاء الاجتماعي أو السياسي عن المشاكل الحقيقية الملحّة الصعبة، وهذا ما يمنح المسؤولين فرصة الهروب من تحمّل المسؤولية، ويخرجهم من المأزق المحرج الذي وضعتهم الظروف فيه.

ولعلّ من أوضح الأمثلة على ذلك، الدعوات الوحدوية التي أطلقتها الحركة القوميّة العربيّة، وما أثاره مفكّروها ودُعاتُها من شعار الوحدة العربيّة التي عاشها العرب كحلم وردي ساحر، تلهث القيادة والقاعدة في سبيل الوصول إليه وتحويله إلى صيغة سياسيّة قانونيّة في علاقات الدول ببعضها البعض، تتجلّى في إطار وحدويّ أو اتحاديّ أو تعاونيّ، أو في علاقات الشعوب ببعضها البعض بعيداً عن العقائد والأفكار المختلفة. وجرت بعض المحاولات التي عملت على استيعاب بعض الدول الإقليميّة في وحدة سياسيّة وإداريّة، تتجمّع في نطاق وطن واحد كبير يستمدّ صفته من صفة العروبة المشتركة، لكنّ هذه المحاولات سرعان ما تعثّرت بعد وقت قصير، واختنق بعضها الآخر في لحظة ولادته، لأنّها كانت تخضع لعناصرَ انفعاليّة طارئة بعيدة عن دراسة الواقع في مشاكله وحدوده وقضاياه... وما زالت المحاولات تتكرَّر لتموت، ولتؤدّي ـ في نهاية المطاف ـ إلى الإيحاء المستمر للناس بأنّ المحاولة لم تنجح، لأنّ الفكرة ليست واقعية في ما يتعارف عليه الناس من أفكار الواقع، الأمر الذي يؤدّي إلى الشعور باليأس من ذلك كلّه. وقد انطلقت محاولات أخرى في اتجاه إلغاء الفروق العقائدية في أسلوب استعراضي مثير، يربط الوحدة بالقومية، فيعتبر اختلاف العقائد من قضايا الهامش في السّاحة، ولكنّها لا تزال تصطدم بالحواجز الطائفيه والمذهبية والفكرية والحزبية.

شعار الوحدة وغياب الظروف الموضوعية

لقد عاشت قضيّة الوحدة في تفكير المسلمين حلماً يُراود أذهان المخلصين منهم، لِمَا عانوه من مشاكل الفرقة والتمزّق والخلاف المستمر على مستوى الحكّام والطوائف والمذاهب والدول والشعوب، ولا سيّما بعد أن سقطت الدولة الإسلاميّة التي لم تَسْلم من توجيه التّهم الظالمة وغير الظالمة إليها، باعتبارها بعيدة عن التمثيل الصحيح للحكم الإسلامي، رغم أنّها كانت تحفظ الشكل والوجه الإسلاميين.

وتنوّعت دعوات الوحدة في كلّ مكان، لتكون ردّ فعل للدعوات العنصرية التي تدعو إلى تفريق المسلمين على أساس اللّون والعنصر، كما هي مشكلة المسلمين السّود والمسلمين البيض التي يريد البعض إثارتها بطريقة أو بأخرى، وكما هي مشكلة القوميات في قضايا العرب والفرس والأتراك والأكراد وغيرهم، أو مشكلة اختلاف الطوائف، كما هي مشكلة السُّنة والشيعة.

وعُقدت المؤتمرات الإسلامية الفكريّة والسياسيّة والفنيّة من أجل الوصول إلى هذا الهدف، وأُنشئت رابطة العالم الإسلامي وغيرها من المؤسّسات التي رفعت هذا الشعار ـ الوحدة الإسلامية ـ ولكنّها لم تحقّق أيَّ هدف على مستوى الواقع، بل بقيت في حيّز التمنّيات المستقبليّة الكبيرة، لأنّها انطلقت من منطق الرغبة في الإسراع لتحقيق هذا الشعار من دون مراعاة الظروف الموضوعيّة التي تحيط به، بالرغم من إدراك القائمين على هذا الشعار وجود ظروف مضادّة تحتاج إلى كثير من الجهود الكبيرة في سبيل تحريك موقف هنا أو موقف هناك، أو خلق جوّ ملائم يستهدف تعميق التجربة وتأكيد المواقف.

ونعتقد أنَّ هذا الأسلوب في معالجة المشاكل يمثّل وجهاً من وجوه الشخصيّة الإنسانية في طريقة تصوّرها للأمور، ومواجهتها للواقع، فهناك الشخصيّة

العميقة التي تواجه القضايا من موقع دراستها الواسعة لجميع جوانبها وظروفها وامتداداتها ووسائل الوصول إليها، وذلك بهدف وضع خطة واقعية للعمل ترتكز على المراحل في سبيل الوصول إلى الهدف، وهناك الشخصية التي ترتبط بالهدف بعيداً عن الوسيلة، فتعيش في الأجواء العاطفية التي تخلق في داخل النفس صورة ضبابية للموقف، وتثير في المشاعر أحلاماً ورديّة تطوف في أجواء الخيال، وتحلّق في رحاب المثاليّات، وتبتعد قليلاً عن خطوات الواقع.

وهذا ما عاشه كثير من المسلمين الذين تحرّكوا مع شعار الوحدة الإسلامية، فلم يدقّقوا في المشاكل الواقعية التاريخية والنفسية والعملية التي تقف أمام تحقيق ذلك، ولم يبحثوا في الوسائل العملية التي تُعتبر خطوة متقدّمة نحو الهدف، بل تركوا الأمر للعواطف التي اكتفت بترديد بعض الآيات القرآنية الداعية إلى الوحدة والاعتصام بحبل الله، وبعض الأحاديث المأثورة المتعلّقة بوحدة المسلمين في قضاياهم العامّة والخاصّة، وأفاضوا في الحديث عن الخسائر التي لحقت بقضايا الواقع الإسلامي كنتيجة طبيعيّة للاختلاف والتفرّق، ولكنّهم كانوا يعودون من هذه المظاهرة الحماسية إلى الواقع المعقّد الذي يعيشونه في أنفسهم، ليجدوا هناك ـ وكرّد فعل على الفشل ـ ابتعاداً نفسياً عن تلك الشعارات.

هذا، وباتت هذه الفئة الإسلامية ـ بنظرهم ـ لا تتمسّك بحبل الله، وتلك الفئة لا ترتبط بخطّ العقيدة على الصعيد الفكريّ، ما يجعلها تتّصل بالكفر من جهة، وبالإشراك من جهة أخرى، وبذلك ينتفي أساس الوحدة معها، لأنّه يشبه وحدة الكفر مع الإسلام، الأمر الذي لا يتناسب مع الإخلاص للخطّ الإسلاميّ الأصيل في مفهوم الوحدة الصحيح. وهكذا يتمّ التركيز على جانب السلبيات بعيداً عن الإيجابيات، وتتحوّل الساحة إلى معركة كلاميّة من معارك الفعل وردود الفعل المحمومة، فهذا يثير مشكلة مذهبية تتعلّق بالحساسيات المقدّسة من جهة، وذاك

يحاول أن يخلق منها عنصر إثارة وتعقيد وتشويش من جهة أخرى. وتتكاثر الردود.. وتنطلق الكلمات غير المسؤولة مشبعة بالحقد والعصبية، وتتوتّر الأعصاب، وتعود الفتنة من جديد، لتدلّل على أنّ الشعارات التي كانت مطروحة لم تلامس إلاّ السطح الخارجي للمشكلة، أما الداخل فتركته مملوءاً بالبارود الذي يُنذر بالانفجار ويهدّد بالدمار.

الاستكبار يستغلّ الانفعالات لتمرير مخططاته

وهكذا استطاعت الذهنيّة الانفعاليّة التي تعيش في عمق الشخصيّة الإسلاميّة، أن تحرّك الموجة في الاتجاه الإيجابي للحياة الاجتماعيّة العامّة من موقع العاطفة التي تتغذّى من عناصر الإثارة السريعة الانفعال، فتوحي بالحبّ والأُلفة في حالة سريعة طارئة لا تلبث أن تهدأ وترجع إلى الوضع الطبيعي المعقّد المرتكز إلى الحقد التاريخيّ الذاتي.

وقد استطاع الاستعمار الكافر أن يستغلّ هذا الوضع العاطفيّ في تعامله مع الواقع السياسيّ للأمّة الإسلاميّة، وذلك باللّعب على الحساسيّات والانفعالات في جوانبها الإيجابيّة والسلبيّة كافّة، فتمكّن من إثارة اللّعبة الطائفيّة عن طريق تغذية عناصر الخلاف الذي يؤدّي إلى معارك مذهبيّة تعمل على تمزيق الأمّة في مواقفها ومشاعرها، وتأليب بعضها على البعض الآخر، ودَفْعِ أفرادها نحو الدّخول في معارك مسلّحة أو غير مسلّحة، لتشارك في تعميق الجِراح القديمة، ولتخلق جراحاً جديدة يمكن النفاذ منها إلى عمق مشاكل الأمّة وقضاياها بما ينسجم مع مخططاته السياسيّة والاقتصاديّة، فيلعب ما شاءت له مصالحه أن يلعب، ويعبث بكلّ ما يستطيع من مسائل العبث.

وهذا ما نواجهه في الواقع السلبيّ الذي تعيشه البلاد الإسلامية في داخل

مجتمعاتها، حيث تلعب عوامل التفرقة المذهبية عملها الشيطاني في خلق أجواء الإثارة والتوتّر والنزاع والقتال فيما بين المسلمين في كلّ مناسبة دينيّة من مناسبات هذا الفريق أو ذاك، كما قد يحدث في احتفالات عاشوراء في الهند وباكستان، حيث تشهد الساحة الإسلاميّة هناك المزيد من المعارك المسلّحة التي تشارك في تعميق المشاعر السلبيّة فيما بين المسلمين السُّنة والشيعة.

وقد يشعر الاستعمار بالحاجة إلى أن يروّج للوحدة الإسلامية في ما يريد أن يخطّط له من محاور سياسيّة ضدّ بعض الأوضاع السياسية الدوليّة في معترك الصراع الدولي، كما كان يحدث في بعض حالات الحرب الباردة بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي، إذ تدفع حاجة الاستعمار الأميركي أو الأوروبي إلى الاستفادة من التجمّع الإسلامي في مواجهة الاتحاد السوفياتي، وذلك من خلال إثارة المشاعر الدينيّة الإسلاميّة في وجه الخطر الإلحادي الشيوعي، فيوحي إلى وكلائه بالدعوة إلى «حلف إسلامي» تارة أو «مؤتمر إسلامي» أخرى، لينفّذ ما يريد لمصالحه من أوضاع سياسية في عملية الصراع التي يخوضها مع السوفيات. وقد رأينا كيف وقفت هذه الأحلاف والمؤتمرات لمصلحة السياسة الغربية أكثر ممّا وقفت لمصلحة السياسة الإسلامية، كما أنّها لم تستطع الدخول إلى عمق المشاعر الحقيقية للمسلمين، بل بقيت مجرّد صيغة سياسية في علاقات الحاكمين ببعضهم البعض، ثمّ ذابت في غمار الأوضاع العالمية المتغيّرة والمستجدّة.

المواقف العاطفية

وهكذا نواجه الموقف الإسلامي الصعب في عملية الوحدة والاختلاف على الأساس العاطفي، لنجد أنّه يشكّل عنصر خطورة على الواقع الاجتماعي

والسياسي الذي يعيشه المسلمون، وذلك في ما يخلقه من ارتباكات واضطرابات في داخل حياتهم ، بطريقة انفعالية لا مجال للسيطرة عليها في غالب الحالات، وفي ما يثيره في أعماقهم من مشاعرَ سلبيّةٍ ضدّ فكرة الوحدة كهدف كبير، لا سيّما عندما يواجهون الواقع الذي يضجّ بالأحقاد والمشاكل التي تحطّم العلاقات الإسلامية في عملية تخطيط دائمة لعلاقات طائفية ضيّقة، ما يوحي للجميع بأنّ الوحدة بين المسلمين هدف مستحيل غير قابل للتّحقيق على أرض الواقع، مستغلّين التجارب الفاشلة والمشاكل الصعبة المتحرّكة في أكثر من اتّجاه.

وقد تمثّل عنصر الخطورة في هذا الطرح العاطفي للقضيّة في جانبه السلبي والإيجابي، في الموقف الذي وقفته بعض الحركات الإسلامية ضدّ الثورة الإسلاميّة في إيران، فقد استطاعت الأساليب المضادّة التي اعتمدها الاستعمار الأميركي وحلفاؤه الأوروبيون، من خلال دعاياتهم المضلّلة، أن يُدخلوا في عمق التفكير الحركي للقائمين على هذه الحركات، أنّ هذه الثورة ثورة شيعيّة لا تتّسع للخطّ الإسلاميّ العام، وبالتالي، فإنّها لا تملك أن تقدّم للإسلام شيئاً كبيراً، لأنّها تنطلق من موقع طائفي أو مذهبي ضيّق، سيّما إذا كان هذا المذهب، في رأي بعض المسلمين، مذهباً خارجاً عن الخطّ الإسلامي الأصيل، ويبتعد به عن مجراه الطبيعي ليحوّله إلى مجرى آخر.

وهكذا استطاع الاستعمار الأميركي أن يثير المشاعر السلبية لدى هؤلاء من حيث يريدون أو لا يريدون، فأبعدهم عن الرؤية الحقيقية للأشياء، وقادهم إلى السير في خطٍّ مخطّطاته التي أراد من خلالها تحجيم الثورة وتصغيرها، ومنعها من الانطلاق بعيداً خارج حدودها في ما أرادته من بثّ نموذج الثورة في أرجاء العالم الإسلامي، وبذلك أصبح بعض العاملين للإسلام يمثّلون الاتجاه المعادي له، والسائر في ركاب الخطّة الاستعمارية، من حيث يشعرون ومن حيث لا

يشعرون، وربّما ساعد على ذلك ارتباط بعض هؤلاء من الناحية المادية ببعض الأنظمة العربية التي حملت لواء معاداة الثورة الإسلامية، لأنّها تمثل النقيض لها في المواقف الحاسمة التي تنطلق من الفهم الأصيل للإسلام في موقفه من الاستعمار والمستعمرين.

مناقشة السلبيّات والإيجابيّات

إنّنا لا نريد إثارة هذه القضية من موقع مناقشة العناصر التي أريد لها أن تُمَارس سلبيّاً ضدّ الثورة، فلذلك مجال آخر، بل كلّ ما نريد إثارته هو الأسلوب العاطفي الذي عاشه هؤلاء العاملون في تأييدهم للثورة الإسلامية عندما أيّدوها، وفي معارضتهم لها عندما بدأوا يعارضونها. فنحن نعرف أنّ لكلّ ثورة سلبيّاتها وإيجابيّاتها التي ينبغي أن يدرسها العاملون في مجال تقويمهم لها، ليكون موقفهم نابعاً من الدراسة العميقة لمجريات عمل الثورة، فلا يكون التأييد حالة انفعالية سريعة طارئة، ولا يكون الرفض ردّ فعل مشابه، لأنّ الثورة ـ في ما نحسب ـ لم تتغيّر في مفاهيمها ونظرتها للواقع منذ انطلاقتها الأولى، فقد طرحت الإسلام من خلال فهمها له من دون أن تتعقّد من الفهم الآخر لبعض الاتجاهات الإسلامية الأخرى، وفتحت صدرها للحركات الإسلاميّة والتحرّرية في العالم من خلال مفهومها السياسي للعلاقات العامّة لمواجهة الكفر والاستعمار في العالم، ولذلك فإنّ المطلوب من العاملين للإسلام، أن يبادروها بالتأييد من خلال إيجابيّاتها بروح إسلامية مسؤولة، وأن يواجهوها بالنقد من خلال سلبيّاتها بالروح الإسلامية المسؤولة نفسها، لأنّ من أخطر المواقف على المسيرة الإسلامية، هي المواقف التي تنطلق من عقدة انفعالية، في القضايا المصيريّة لواقع الإسلام والمسلمين.

بالمسؤولية والحوار نتجاوز كلّ العُقَد

وفي ضوء هذا العرض السريع للجوّ العاطفي الذي يسود الدعوة إلى الوحدة الإسلامية أو إلى الطائفية والمذهبية الإسلامية ـ إن صحّ التعبير ـ قد نشعر بالحاجة إلى التوقّف أمام هذا الجوّ في وقفة تأمّلية هادئة، في ما نواجهه من تأمّلات عملية.

فربّما نجد أنّ من الضروري أن يقف العاملون ليواجهوا خطورة هذه السلبيات وتأثيرها على مصير الأمّة في هذه المرحلة الصعبة من تاريخها، فيخطّطوا للعمل على إفساح المجال فيما بينهم، للدراسة الواعية العميقة للمشاكل العالقة بين المسلمين، سواءً ما كان منها متّصلاً بالجوانب العقيديّة أو الشرعيّة أو بالجوانب الحياتيّة العامّة، وذلك بطريقة علميّة هادئة تنطلق من الشعور بالمسؤوليّة الإسلاميّة، وترتفع إلى مستوى مراقبة الله في أمر الإسلام والمسلمين، بعيداً عن كلّ العقد التاريخيّة المصبوغة بالحقد أو الدم، فيكون الحوار الهادئ الذي يصل بالقضايا إلى جذورها الأساسيّة وامتداداتها البعيدة، ولا يبقى عالقاً على مستوى السطح، فإنّ ذلك يدفع إلى مواجهة الواقع من خلال مشاكله الحقيقية التي تدفع إلى الأخذ بالحجم الطبيعي للأشياء، ولا يسمح للانفعال أن يتحرّك في الساحة، لأنّه لا يندفع إلاّ في الحالات التي يسيطر فيها التصوّر الضبابي للقضايا العامّة، ما يُفسح في المجال لإعطاء الأمور حجماً أكبر من حجمها الطبيعي، أو مواجهة المشاكل بحجم أصغر من حجمها العادي.

وسوف يساهم هذا الاتجاه في اكتشاف مواطن اللّقاء الكثيرة بين المسلمين، ويساعد في توجيه الاهتمام نحو مواجهة مواطن الخلاف بروح موضوعيّة هادئة، ويجعل من وحدة العاملين أو من تعاونهم في نطاق هذا الأسلوب العمليّ المسؤول، أساساً لتجربة جديدة لوحدة إسلاميّة عميقة على مستوى المسلمين،

لأنّ الغالب في المشاكل الصعبة التي تواجه القاعدة الشعبية الإسلامية في ما تخوضه من خلافات ونزاعات، يرجع إلى تأثير الفئات الموجّهة لها في ما تريده وفي ما لا تريده، فهي العقل المفكّر الذي يرسم للقاعدة أفكارها وارتباطاتها ونظرتها للأمور، كما يرسم لها مشاعرها وأحقادها وعواطفها الإيجابية والسلبية، فإذا عاش العاملون المسؤولية في هذا المجال، أمكن لهم أن يوجّهوا خطّ السير للأمّة في هذا الاتجاه، فتكتمل ـ من خلال ذلك ـ الوسائل الفكريّة والعمليّة لتحقيق الهدف.

وقد نشعر ـ إزاء هذا الجوّ العاطفي المحموم ـ بالحاجة إلى الانطلاق في خطّ التربية للشخصيّة الإسلامية، في كلّ مجالاتها العمليّة العامّة والخاصّة، وذلك بالابتعاد عن أجواء الانفعال، والتركيز على الأجواء العاقلة الهادئة، فلا يكون الانفعال سبيلها للوصول إلى قناعاتها، كما لا يكون سبيلها للوصول إلى أهدافها، بل تعمل على تبريد الداخل في حالات التوتّر، وتفسح في المجال للتفكير الموضوعي الهادئ بالتجوّل في آفاق النفس، وفي آفاق المشكلة، وفي خطوات الحلّ، ليستطيع رصد الواقع بكلّ موضوعية واتّزان، فلا يحجبه عن رؤيته ضبابُ عصبيّة، ولا تمنعه من إعطاء الحكم الصحيح له حالة ذاتية معقّدة.

فإذا استطاعت التربية أن تأخذ مجالها الطبيعي في هذا الاتجاه، أمكن لقضايانا المصيرية ـ كقضيّة الوحدة ـ أن تقف على قاعدة صلبة من الفكر العميق، والرؤية الواضحة، والإيمان المنفتح، والرّوح السَّمحة، والواقعية الهادئة، لأنّ الإنسان الذي يحمل مسؤولية هذه القضايا، يتحوّل إلى إنسان مسؤول يعيش المسؤولية في عمق إحساسه بالله وبالحياة وبالإنسان، في الإطار الإسلامي الواسع الذي يدفع الإنسان إلى السير في الصراط المستقيم الذي لا مكان فيه إلاّ للإسلام.



تصوّرات واتجاهات
في مسألة الوحدة

نجاح الدعوة ووحدة الخطة

مسألة الوحدة الإسلامية هي مسألة الإسلام في خطّ الدعوة والحركة والواقع، لأنّ نجاح الدّعوة يفرض خطّة موحّدة تؤكّد التصوّر الواضح لعقيدة الإسلام وشريعته ومنهجه وأساليبه وأهدافه، بحيث يمكن للدّعاة أن يقدّموا للنّاس صورته في مقابل الصور الأخرى بالطريقة التي تؤصّل المفاهيم وتمنح الثّقة وتركّز الخطّ وتوازن الواقع.

ولا بُدّ في ذلك من التكامل بين المفكّرين والمجتهدين في أعمالهم الثقافية والفقهية، من أجل تقريب المضمون الإسلامي إلى وجدان المسلمين، وترتيب مفرداته لتركيز القاعدة الفكرية الواحدة، فلا تكون لدينا عدّة إسلامات، كما يحاول البعض من العلمانيين الحديث عنه، بل إسلام واحد لا تختلف عناوينه في خطوط الفكرة والواقع إلاّ في بعض التفاصيل التي لا تمسّ الخطّ العام، لأنّ الاختلافات الكبيرة قد تؤدّي ـ كما أدّت ـ إلى الارتباك والفوضى في حركية التصوّر الإسلامي في الوجدان العام، لا سيّما عندما تختلط مقاييس الخطوط العقيديّة في ما هو الإيمان والكفر، فنجد إسلامياً يكفّر إسلامياً آخر أو يضلّله أو يتّهمه بالانحراف، من دون ضوابط موحّدة في ذلك، ما يجعل لأيّ إنسان أن

يمارس مسألة التكفير والتضليل بطريقة ضبابية، فتتحوّل العلاقات الإسلامية من خلال فوضى التصورات ـ لا سيّما لدى العامّة من الناس ـ إلى ما يشبه العلاقات بين الأديان المتعدّدة، حتى أنّ المذهب الواحد قد يعيش في داخله مثل هذا الارتباك النفسي، إذا لم يعد الناس يفرّقون بين ما هو إسلام وما هو كفر.

ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الواقع التصوّري في الوجدان الإسلامي يقف حاجزاً بين الدّعاة وبين الانفتاح على الآخرين في تقديم الصورة الموحّدة للإسلام.

وهذه هي مشكلة المذهبية الكلامية أو الفقهية المتعدّدة، وما يتفرّع عنها من اختلاف في المفاهيم على مستوى اكتشاف المذهب الاقتصادي والاجتماعي والتربوي والسياسي من داخل الخطوط المتشابكة في داخل المضمون العقيدي والفقهي، ما لا يستطيع الدعاة فيه أن يقدّموا للإنسان المعاصر صورة واضحة توحيدية عن المضمون الإسلامي للاتجاه الفكري في العناوين المعاصرة التي تواجه حياة الإنسان في قضاياه العامّة في الواقع.

وربّما تمتدّ المسألة إلى الجانب الحركي الذي قد يتحوّل إلى ما يشبه الاختلاف في المذاهب، عندما تتنازع الحركات الإسلامية المتعدّدة في نظام الحكم، وفي أسلوب العمل، وفي أساليب التواجه من حيث الرّفْق والعنف والتقاطع والتواصل في العلاقات الدولية، هذا بالإضافة إلى تعقيدات المؤثّرات المذهبية التي تحوّلت في الوجدان الشعبي إلى حالة حادّة من العصبية الخانقة ضدّ المسلمين الآخرين من خلال بعض التراكمات التاريخية والتعقيدات النفسية في قضايا التاريخ المنعكسة على الواقع، الأمر الذي ينعكس سلباً على هذه الحركة أو تلك في داخلها، أو على علاقتها بالحركة الإسلامية الأخرى، بحيث قد تتمثّل في الواقع إمّا بالمقاطعة أو بالمجاملة القائمة على التكاذب، لتبقى القضيّة في دائرة فقدان الثّقة بين الحركات، بحيث لا مجال أمام ذلك لأيّ

عمليـة تنسيق أو تخطيط لعمل مشترك، حتـى أنَّ تجربـة العمل المشتـرك ـ فـي بعـض الظـروف ـ تتحـوّل إلـى اهتزاز داخلـي بفعـل الخلفيـات التي تحكم سلوك هذا وذاك من القائمين علـى العمـل انطلاقـاً مـن النظرة الحذرة للمواقف المتبادلة.

وعلى هذا الأساس، فإنّنا لا نستطيع الوصول إلى وحدة إسلامية حركية أو جبهة إسلامية موحّدة، في علاقة الحركات الإسلامية ببعضها البعض، أو إلى حالة من التعايش فيما بينها، بحيث لا تُسقِط إحدى الحركتين الأخرى في المستوى الإعلامي، أو السياسي، أو الاجتماعي.

العقدة الاستكبارية من الإسلام

وإذا اقتربنا من واقع السياسة الدولية في موقفها من قضايا العالم الإسلامي، لا سيّما السياسة الاستكبارية التي يمارسها قادة الدول الكبرى، فإنّنا نجد أنّ هناك عقدة تاريخية من الإسلام ـ لا سيّما في الغرب ـ تعيش في منطقة اللاشعور في وجدان الإنسان الغربي، كما نجد تصادماً بين المصالح الاستكبارية في الواقع الإسلامي وبين مصالح المسلمين بالدرجة التي يجد فيها الاستكبار العالمي نفسه معنيّاً بالسيطرة على كلّ مفاصل الاقتصاد والأمن والسياسة من أجل تأمين مصالحه الحيوية، لتكون كلّ ثروات المسلمين رصيداً احتياطياً لثرواته، فلا يبقى للمسلمين منها إلاّ القليل، كما تتحوّل المواقع الاستراتيجية في البلاد الإسلامية إلى هامش لحاجاته الأمنية والسياسية في صراعاته المتنوّعة، ليكون العالم الإسلامي تابعاً له في كلّ قضاياه، بحيث لا يملك أيّة فرصة للتحرّك الذاتي.

وقد استطاع الاستكبار العالمي وحلفاؤه الاستفادة من واقع اللاوحدة بين المسلمين، ومن سلبيات التمزّق الوجداني ـ المذهبي، أو النزاع المتجذّر

في العمق، والتخلّف الثقافي والسياسي والاجتماعي في التصوّر والحركة والعلاقات، فعمل على تحريك الخلافات المذهبية إلى درجة التقاتل، وتعقيد العلاقات الحركية إلى مستوى المقاطعة، حتّى لم يعد لدينا عالم إسلامي بالمعنى السياسي الذي يلتقي فيه المسلمون على قضاياهم الحيوية، وتطلّعاتهم الثقافية، وأوضاعهم السياسية في كلّ علاقاتهم الواقعية ببعضهم البعض، ولعلّ أصدق صورة للواقع هو ما قاله الشاعر العربيّ في تصوّره للواقع التاريخي للمسلمين:

وتفرّقوا شِيَعاً فكلّ قبيلةٍ فيها أميرُ المؤمنينَ ومِنْبرُ

وهذا هو الذي أسقط الاندفاعة الإسلامية في الدّعوة والحركة والواقع، فلم يعد للإسلام تأثير كبير في ثقافة العالم وسياسته واقتصاده وأمنِه، لا سيّما بعد أن استطاع الاستكبار العالمي السيطرة على أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية، بحيث اندفع الحاكم فيها إلى محاصرة الثقافة والسياسة والاجتماع في حركة المسلمين العاملين على أساس إعادة الإسلام إلى الواقع الإنسانيّ كقاعدة للفكر والعاطفة والحياة، فلم يسمح للإسلاميين ـ في أغلب هذه البلدان ـ بأن يتحرّكوا سياسياً بحريّة، لأنّ الإسلام، حسب مفهومهم، لا دخل له بالسياسة.

وقد استطاعت هذه الأنظمة أن تسخّر بعض العلماء والفقهاء والوعّاظ والخطباء ليكونوا بمثابة الاحتياطي الإسلامي لمواجهة المتطرّفين ـ كما يعبّر عن الإسلاميين الواعين والحركيين ـ ليبرّروا للحاكمين أعمالهم، أو ليطلقوا الدّعوة في التطبيع مع الأنظمة، والاكتفاء بالنصيحة الخجولة، حتى أصبح الواقع الديني، لا سيما في المواقع الرسمية أو شبه الرسمية، واقع وعّاظ السلاطين الذين يقدّمون لهم فتوى بالحرب عندما يريدون الحرب، وفتوى بالسلم عندما يريدون السلم، وهكذا في الحديث عن الرفق والعنف.

إنّ هذا كلّه قد يكون نتيجة للتمزّقات الإسلامية المذهبية والاجتماعية

والحركية التي أضعفت الواقع كلّه، ففقد المسلمون قوّة الضغط واستقامة الطريق ووحدة الهدف.

وهذا هو الذي يجعلنا نصل إلى الجواب الحاسم: إنّ الوحدة الإسلامية هي من أجل إسلام الفكرة والدعوة والحركة والواقع، ليكون الدّين كلّه لله.

التاريخ المعقّد وفقدان روحية الحوار

أمّا في العنوان الثاني، فقد يجدر بنا أن نفكّر بأنّ التاريخ الثقافي المعقّد من واقع الجدل التاريخيّ الذي كان ولا يزال دائراً بين علماء المسلمين في مذاهبهم المتعدّدة، قد يكون ناتجاً من فقدان الروحية الحوارية، التي تعتبر الحوار وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة بالتعاون مع الآخر، وذلك بالاستماع إلى وجهة نظره بعقل منفتح، فلا يكفي لأن يصل الإنسان إلى الحقيقة من خلال تجربته الذاتية، لأنّه من الممكن أن يكتشف شيئاً آخر في التجربة الثقافية المشتركة في ساحة الحوار، فلا بُدّ له ـ أمام ذلك ـ من أن يتمثّل إسلامه في مذهبيته ليعيش إخلاصه لله في حركته الفكرية المتّجهة نحو الحقّ، وأن يختزن في وجدانه الديني الخطّ المذهبي باعتباره يمثل وجهة نظر في فهم الإسلام، فلا يمنع ذلك من أن تتحرّك وجهة نظره في الاتجاه الآخر، فذلك هو الذي يجعله أكثر قدرة على فهم حقيقة انتمائه الذي قد يكون ناشئاً من واقع وراثي أو عاطفة خاصّة أو تأثير اجتماعي تقليدي قد يؤثّر في التزامه الثقافي.

ويمكن أن يمتدّ ذلك إلى الاختلافات الاجتهادية في داخل المذهب الواحد. فإنّ مثل هذه الروح الموضوعية قد تتيح للإنسان الفرصة للاختيار الذاتي في التزاماته الكلامية أو التاريخية أو الفقهية، وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾ [سبأ: ٢٤]. فإنّ إيحاءات هذه الآية في مسألة الحوار مع الآخر ـ حتى لو كان كافراً ـ تعني بأن يعيش المتحاوران ذهنية

الشكّ الموضوعيّ المتبادل في أسلوب الحوار، بحيث تحكم هذه الذهنية كلّ مفردات الحوار، فلا تكون هناك أيّة حالة ذاتية، بل حقيقة ضائعة بين الطرفين، يلتقيان على السعي المشترك لاكتشافها، في هذا الانتماء أو ذاك.

وقد نستوحيه في تأكيد النقاط المشتركة ـ في البداية ـ كأسلوب من أساليب تحسين الظروف النفسية للحوار، وذلك هو قوله تعالى: **﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** [العنكبوت : ٤٦]، فإنّنا نلاحظ التركيز على مواقع اللّقاء، وإغفال الجوانب التفصيليّة في الخلافات حول ما أُنزل إليهم، ممّا أثار المسلمون فيه مسألة التحريف، أو في شخصية الإله في تعدّد الأقانيم لدى النصارى، أو في غير ذلك من صفات الله لدى اليهود. وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى: **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾** [آل عمران : ٦٤].

إذ يتحدّث عن الكلمة السواء التي تعني الاعتراف بأنّ أهل الكتاب مُوَحِّدون، حتى لو اختلفوا معنا في تفاصيل الذات الإلهية، وهكذا في رفض ربوبية الإنسان للإنسان التي هي فرع التوحيد.

وربّما نستوحي من هذه الآية، أنّ الكلمة السواء هي العنوان الذي يمثّل قاعدة اللقاء بالآخر والتعاون والتعايش معه، كبداية للعلاقة التي يمكن أن تنفتح على حوار طويل خاضع لروحية الإحساس بالقاعدة المشتركة بيننا وبينهم، ويمكن استيحـاء ذلك من تأكيد عنوان الجدل بالتي هي أحسن، في قول الله تعالى: **﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [النحل : ١٢٥].

إنّ ذلك كلّه يمثّل المنهج الإسلامي في روحية الحوار التي تحدّد مفردات الأسلوب وحركيّته، بحيث يكون إنسانياً ينفذ إلى أعماق الإنسان وظروفه النفسية والثقافية، الأمر الذي يجعل حركة الحوار حركة تصاعدية انتقالية تبحث عن الأحسن والأفضل في الكلمة والجوّ والأسلوب والمضمون، لتخترق كلّ الحواجز النفسية التي يمكن أن تحول بين الإنسان عندهم وبين الفكر عندنا، لأنّ المسألة، كلّ المسألة، هي أن تعترف بالآخر وتحترم تفكيره، وتتعامل معه بالرفق، ولا تضطهد فكره، بل تفسح له في المجال لينفتح عليك في اللّقاء بفكرك بهدوء واتّزان.

المشكلة تكمن في التعصّب

إنّ المشكلة التي تواجهنا في الحوار الإسلامي ـ الإسلامي، سواء في ساحات المذاهب المتعدّدة أو الاجتهادات المتنوّعة، هي التعصّب للرأي بالدرجة التي لا مجال فيها لأيّة إمكانيات للقاء على أرض مشتركة، ولأيّة فرصة لتقديم تنازلات متبادلة.

إنّنا نتصوّر أنّ الحوار الواقعي الذي يمكن أن يصل إلى نتيجة إيجابية لمصلحة التقارب أو الوحدة، هو الحوار الذي ينطلق على أساس أن تلتقي بالآخر في منتصف الطريق على الكلمة السواء، لأنّ ذلك هو الذي يبعدنا عن التعصّب الحاقد الانفعالي، وهذا التعصّب حالة مرضيّة تجتاح كلّ الصحّة النفسية والروحية والثقافية في ساحات الحياة، ولعلّ ذلك هو ما نستوحيه من حديث الله سبحانه عن علاقة النبي (ص) بالآخرين: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فهذه هي الروحية التي تحكم القلب، والأسلوب الذي يحكم اللّسان، في

لين القلب الذي يتمثّل بالاحتضان الشعوري للآخر، ولين اللّسان الذي يتمثّل بالكلمة الطيّبة الحلوة التي توحي بالمحبّة والرحمة والحنان.

إنّ المشكلة عند الكثيرين من المسلمين ـ بمن فيهم المثقّفون والعلماء ـ أنّهم لا يقرأون القرآن في المنهج والأسلوب والعلاقات. وهذا ما يجعل القلب في سواد دائم وتشنّج متواصل في مواجهة حالة الخلاف المذهبي والاجتهادي مع الآخر، بالدرجة التي قد تصل إلى المنطق اليهودي الذي تحدّث عن المقارنة بين المشتركين والمسلمين في حديث الله عن ذلك، في قوله تعالى: ﴿**هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً**﴾ [النساء : ٥١].

نحتاج إلى ذهنية تنتج إسلاماً

إنّنا نعتقد أنّ علينا أن نخطّط ـ على المدى البعيد ـ لبرنامج ثقافي تربوي يعمل على أساس إنتاج الذهنية الإسلامية التي يتحسّس فيها المسلم إسلامه قبل أن يتحسّس فيها مذهبه، بحيث يتصوّر الإسلام في مذهبه، لتكون الروحية الإسلامية هي التي تحدّد له روحية المذهب، كما يعمل على أساس تركيز الذهنية الموضوعية العقلانية البعيدة عن العاطفة والانفعال. وهذا ما يمكن لنا أن نصل من خلاله إلى بعض النتائج الإيجابية في هذا المجال، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإنّ من الممكن العمل على أساس التجربة الإسلامية الوحدويّة في الساحة السياسية، فهناك قضايا إسلامية في الساحة السُّنية كقضيّة فلسطين، وهناك قضايا سياسية في الساحة الشيعية كقضية إيران، وهناك قضايا مشتركة بينهما، وعلينا أن لا نُمذهِب هذه القضية أو تلك لنفصل الوجدان الشعبي عن هذه القضية الإسلامية أو تلك. وهذا ما لاحظناه لدى بعض التقليديّين من السنّة والشيعة الذين نرى بعضهم يتعقّد من القضية الفلسطينية باعتبارها قضية

سنيّة، ونرى البعض الآخر يتعقّد من القضية الإيرانية باعتبارها قضية شيعية، بحيث فقد هؤلاء وأولئك الوعي السياسي الذي يتعرّفون من خلاله إلى أنّ المسألة هنا وهناك هي مصلحة الاستكبار الغربي والشرقي والصهيوني، وليست مسألة مذهب معيّن، الأمر الذي يحرّك النتائج السلبية في حياة المسلمين كلّهم نحو إسقاط مصالحهم الحيوية، وقضاياهم المصيرية.

إنّ علينا أن نرتفع إلى مستوى الوعي السياسي الذي يدرس خلفيات التحديات الاستكبارية للواقع الإسلامي كلّه للسّيطرة عليه، مستغلّة في أساليبها المخابراتية هذا التعقيد المذهبي، لتحيّد الشيعة عن القضايا الإسلامية في الدائرة السنيّة، أو تحيّد السنّة عن القضايا الإسلامية في الدائرة الشيعية بوحي التخلّف السياسي والثقافي.

وإذا كنّا نؤكد على القضايا السياسية، فإنّنا نرى امتداد الخط السياسي في المسائل الاقتصادية والأمنية، لأنّها تمثّل النتائج الحيوية في المسألة السياسية التي يحكمها الاقتصاد والأمن في العالم الثالث كلّه.

لقد عاش العالم الإسلامي تجربة إيجابية في أكثر من مسألة سياسية تتّصل بأكثر من قضية إسلامية، في الجانب الشعوري أو في الموقف السياسي، ولا بُدّ لنا من أن ندرس مثل هذه الوحدة السياسية الشعورية والعلمية، فقد نجد فيها لوناً من ألوان التجربة التي تخطّط لأكثر من قضية حاضرة ومستقبلية.

وربّما كانت الوحدة السياسية وسيلة للاقتراب من الوحدة الثقافية والروحية.

نجاح الوحدة في موقع يمهّد لنجاحات أخرى

أما العنوان الثالث، فقد نلتقي به في بعض التجارب الواقعية التي أثبتت نجاحها جزئياً في بعض المؤسّسات الوحدوية الإسلامية، مثل (جماعة التقريب

بين المذاهب الإسلامية) في مصر، و(مجمع التقريب) في إيران، و(تجمّع العلماء المسلمين) في لبنان، وأمثال هذه التجمعات التي يلتقي فيها العلماء من السنّة والشيعة لقاءً ثقافياً فكرياً كوسيلة للوحدة في المستقبل.

وهكذا نجد التجربة إيجابية في التعاون بين السودان وإيران، أو بين بعض الحركات الإسلامية المتعدّدة المذاهب، في لبنان وفلسطين والسودان وغيرها، أو في التلاقي الفكريّ بين الشخصيات الإسلامية القيادية، أو في المؤتمرات الوحدوية التي تعقد على أساس القاعدة الإسلامية في لقاءات العلماء والمفكرين الإسلاميين.

إنّ مثل هذه النماذج التي تتمثل في أكثر من بلد إسلامي، وفي أكثر من موقع سياسي، قد تصلح كنموذج للمستقبل الكبير الإسلامي الوَحْدَويّ، باعتبار أنّ نجاح الوحدة أو التقارب في بعض المواقع، قد يحمل الواقعية لنجاحات أخرى في مواقع متعدّدة.

ولا بُدّ لنا من دراسة مثل هذه التجارب الوَحْدَويّة في عناصر القوّة والضعف فيها، لنستزيد من الإيجابيات، ونتفادى السلبيات في المستقبل.

الوحدة الإسلامية ممنوعة استكبارياً

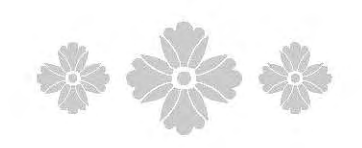
أمّا في العنوان الرابع، فقد يكون من الضروري أن يعي المسلمون ـ جيداً ـ أنّ الوحدة الإسلامية، حتّى على مستوى التقريب بين المذاهب الإسلامية، من الممنوعات الاستكبارية التي يعمل المستكبرون على الوقوف أمامها بشدّة ثقافياً وسياسياً واجتماعياً، ما يجعل من قضية الوحدة الإسلامية قضية في مستوى قضايا التحرّر من الاستكبار العالمي في خططه الشريرة في العالم الإسلامي، والتي في مقدّمتها منع صنع القوّة بين المسلمين، لأنّ ذلك سوف يعطّل الكثير من مصالحهم الحيوية في هذا العالم.

ومن ناحية أخرى، فإنّ قوى التخلّف المضادّة في داخل الأمّة، تقف حائلاً أمام الوحدويّين العاملين في خطّ الوحدة الإسلامية، وذلك بتأكيد الهوامش الصغيرة والتفاصيل الجزئية، من أجل إقامة الحواجز النفسية والثقافية بين المسلمين على قاعدة التعصب في دوائر التكفير والتفسيق والتضليل.

ويبقى للوحدويّين أن يؤكّدوا للخائفين على انتماءاتهم المذهبية أو مواقعهم الاجتهادية، بأنّ الوحدة لا تعني، في حركيّتها في الواقع، دعوة الإنسان إلى ترك مذهبه تلقائياً، بل أن يلتقي المسلمون على الخطوط العقيدية والشرعية للإسلام، وأن يتحاوروا في ما يختلفون فيه من التفاصيل هنا وهناك على أساس إرجاع الأمر إلى الله ورسوله بما يتنازعون فيه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [النساء:٥٩].

الوحدة منطلق التقدّم والحرية والإبداع

إنّ الوحدة الإسلامية هي قاعدة القوة للمسلمين، وهي منطلق التقدّم والحرية والإبداع في العالم الإسلاميّ كلّه، من أجل أن يكون الإسلام قوّة عالمية كبرى تساهم في صنع مستقبل العالم بأسره: ﴿ **وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران : ١٠٣]. ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء : ٩٢].





برنامج الإمام علي(ع) وأئمّة أهل البيت(ع) لمشروع الوحدة

الوحدة بين المعنى والمظهر

للوحدة الإسلامية معنى في الفكر والعقيدة ومظهر في الحركة والحياة. أمّا معناها في الفكر فيتمثل بالقاعدة الفكرية التي يلتقي عليها المسلمون في تصوّرهم للمفردات المشتركة للعقيدة، كالتوحيد والنبوّة والمعاد وما أنزل الله من شريعة في القرآن، في ما ألزم الله به عباده من الخطّ المستقيم الذي يتحرّكون فيه أو يقفون عليه، وفي المفاهيم العامّة التي يختزنها وعيهم لله وللإنسان وللحياة.

وتبقى التفاصيل في العقيدة والخصوصيات في الشريعة وفي المفاهيم، ممّا يختلف فيه المسلمون على أساس فكر فلسفيّ، أو اجتهاد فقهيّ، أو فهم قرآنيّ وما إلى ذلك، فهذه تُترك لحيوية السجال في دوائر الوفاق وحركة الحوار المتّجهة نحو اللّقاء.

وأمّا مظهرها في الحركة والحياة، فيتمثّل في طريقة الخطاب الإسلامي الذي يطلقه المسلمون في حديثهم مع الآخرين أو في نوعية الخطاب فيما بينهم، وفي احترامهم المتبادل لانتمائهم الإسلامي في الكلمة والفعل والعلاقة، وفي نظرتهم لأموالهم وأعراضهم من خلال معنى الإسلام في وجودهم الفاعل في الحياة، وفي خطّ الأهداف الكبيرة التي تلتقي فيها كلّ قضاياها الحيوية والمصيرية، وفي

الالتزام بوحدة الموقع والطريق والمصير في ما يمثّله معنى الأمّة الموثوقة برباط العقيدة من خلال ذلك كلّه.

على أنّ ما يعيشه الكثيرون من النّاس هو أنّهم يضعون الفواصل الدقيقة في القضايا العامّة، ليجعلوا العقيدة الواحدة أكثر من عقيدة، وليحوّلوا الموقف الواحد إلى أكثر من موقف، فلا يرون أساساً للوحدة بين الناس إلاّ إذا اتّحدوا في كلّ شيء حتّى في أدقّ التفاصيل. وفي ضوء ذلك، حاول البعض أن يقسّموا الإسلام إلى عدّة إسلامات لا يرتبط بعضها بالبعض الآخر، أو أن يجعل الاختلاف في المذهب الكلامي أو الفقهي مسألة تتّصل بالإسلام والكفر، بحجّة أنّ المذاهب لا يمكن أن تكون بأجمعها على حقّ في خلافاتها، لا سيّما أنّ الحقّ لا يتعدّد، وهذا يفترض أن يكون بعضها على خطأ، ما يوحي بأنّ الالتزام به يمثّل نوعاً من الكفر بالحقّ في هذه الدائرة، لكنّنا إذا اعتبرنا الجزئيات الشرعيّة أو الفكريّة في الخطوط التفصيليّة للعقيدة والشريعة أساساً للإيمان، كان الاختلاف في هذه الأمور بمثابة الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر، ما يعني بأنّ لدى كلّ مذهب إسلامي شيئاً من الكفر التفصيلي في ما يخطئ فيه المفكّرون أو المجتهدون ممّا يُعذَرون فيه أو لا يُعذَرون.

وفي ضوء ذلك، يمكننا أن نؤكّد على الإسلام في الخطوط العامّة للعقيدة في ما رسمه القرآن من ذلك، ما يجعل للّقاء على هذه الخطوط معنى في الإسلام، وخطّاً للوحدة.

الإمام عليّ(ع) نموذج رائد للممارسة الوحدويّة

وهذا ما جعل المسلمين في العهود الأولى التي اختلفوا فيها حول الخلافة وبعض المفاهيم والتشريعات، لا يَرَوْنَ في خلافاتهم أساساً لتكفير بعضهم

بعضاً، أو لمقاطعة بعضهم البعض، بل كانوا يَرَوْنَ في الاختلاف حالة من حالات الغموض في بعض القضايا، أو جهلاً في بعض الوقائع، أو انحرافاً ذاتياً في بعضها الآخر، ما قد يقع محلاًّ للتخطئة أو للجدال أو للتجاذب العملي الذي قد يثير بعض المشاعر والأحاسيس، وقد يعقّد بعض المواقف.

وإذا كانت الحروب قد وقعت فيما بينهم، أو كان العنف قد سيطر على بعض أوضاعهم، فلم يكن ذلك ناتجاً عن طبيعة الخلاف الفكري بالمعنى الدقيق للكلمة، أو من جهة أجواء التفكير التي تتحرّك في أفكارهم ومشاعرهم، بل كان ذلك نتيجة اختلاف في حركة الحكم أو في حركة الوعي والممارسة.

وربّما نجد في كلمات الإمام علي أمير المؤمنين(ع) الخطّ العريض لحركة الوحدة الإسلامية أمام الخلافات الصعبة التي كانت تمثّل اختلافات المسلمين في تلك المرحلة الصعبة من حياتهم، فقد كانت الخلافة تمثّل الأساس في تلك الخلافات، باعتبارها أوّل مشكلة حقيقية واجهت المسلمين بكلّ قوّة، وعقّدت الواقع الإسلامي بأكثر من عقدة، لأنّها تتّصل بالعمق الفكري والتشريعي لمسألة القيادة في الإسلام، بحيث يمثّل الانحراف بها عن خطّها المستقيم انحرافاً عن معنى الصفاء في الإسلام، باعتبار أنّ الإمامة شيء يتّصل بالجانب العقيدي في امتداد المسؤولية فيما بعد النبوّة، إلى جانب الالتزام العملي في الإسلام في نظر فريق من المسلمين، بينما كانت في نظر فريق آخر مجرّد تجربة من تجارب المسلمين في الحكم تتّصل بجانب حركة التطبيق بعيداً عن مسألة الخطّ الفكري فضلاً عن معنى القداسة، ولذلك لم تحتج القضية لديهم إلى كثير من الجدل، بل لم تقترب من الجدل الفكري، تماماً كما هي القضية عندما يذهب رئيس القوم ليجتمع القوم على رئيس آخر من بعده.

وكان الإمام(ع) قطْبَ الرَّحى في هذه المسألة المهمّة والشائكة، لأنّه هو

الخليفة المؤهّل لقيادة المسلمين بعد النبيّ(ص) من خلال وصيّة النبيّ(ص) إليه في ما أراد الله لرسوله أن يبلّغ ما أُنزل إليه من ربّه... وكانت القضية أن أُبعِد الإمام عن موقعه في الخلافة، وتقدّمه الآخرون في مدى خمس وعشرين سنة... وكانت التجربة الصّعبة التي عاشها الإمام في تلك المرحلة، فكيف كان موقفه؟

الإسلام يعلو على كلِّ مصلحة

لقد كان للإمام(ع) موقف واضح، وهو أنّ مصلحة وجود الإسلام وقوّته تعلو على كلّ مصلحة أخرى، وأنّ غياب القيادة الشرعية في مرحلة، قد يفسح المجال لحضورها في مرحلة أخرى في نطاق شخص القائد أو نطاق قائد شرعي آخر، ما دام الإسـلام باقيـاً كفكر وانتماء في الوعي، وكحركة في الواقع، ما يجعل القيادة ـ بعد ذلك ـ للمسلمين بشكل عام، بعد توفّر إمكانات التصحيح والتغيير فيما بعد.

بينما يمثّل غياب الإسلام نفسه عن الساحة، كارثة كبيرة على مستوى قضيّة القيادة والواقع كلّه، لأنّ القيادة لا تمتلك عنواناً للحركة آنذاك، ولا قاعدة للانطلاق، بل هي لا تحمل أيَّ معنى من هذه المعاني، وذلك في غياب الإمكانات العملية لوصول القيادة إلى موقعها الطبيعي مع المحافظة على الإسلام في وجوده القوي.

وفي ضوء ذلك، فإنّنا نستوحي من موقف الإمام عليّ(ع) القاعدة الثابتة للوحدة الإسلامية في تجربة القيادة والقاعدة الشعبية للأمة، وهذا ما يقتضي منّا التأمّل في حديث الإمام عليّ(ع) عن تجربته العملية في هذا الموضوع.

قال ـ كما في نهج البلاغة ـ في كتاب له إلى أهل مصر عبر مالك الأشتر، لمّا ولاّه إمارتها:

«أمّا بعدُ، فإنّ الله سبحانه بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) نذيراً

للعالمين، ومُهيمناً على المرسلين، فلمّا مضى (عليه السلام) تنازعَ المسلمون الأمرَ من بعدِهِ، فوالله ما كان يُلقى في رُوعي ولا يخطُرُ ببالي، أنّ العربَ تُزْعِجُ هذا الأمرَ من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أهل بيته، ولا أنّهم مُنَحُّوه عنّي من بعده! فما راعني إلاّ انثيالُ الناس على فُلان يبايعونه، فَأَمْسَكتُ يدي حتى رأيتُ راجِعَةَ الناس قد رَجَعَت عن الإسلام، يدعون إلى مَحْقِ دين محمّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم)، فَخَشِيتُ إن أنا لم أنْصُر الإسلامَ وأهلَه أن أرى فيه ثَلْماً أو هَدْماً، تكون المصيبة به عليّ أعظمَ من فَوْتِ ولايتِكم التي إنّما هي مَتَاعُ أيّام قلائلَ، يزول منها ما كان، كما يزول السَّرابُ، أو كما يتقشَّعُ السحابُ، فَنَهضْتُ في تلك الأحداث حتّى زاحَ الباطل وزَهَقَ، واطمَأَنَّ الدِّين وتَنَهْنَه»[1].

وهذا ما فعله الإمام عليّ(ع) عندما نهض بمسؤوليّته وابتعد عن الموقف السلبي، فتحوّل إلى الموقف الإيجابي، وتحدّى الواقع المضادّ والقوى المضادّة المتحرّكة في ساحته، حتى انزاح الباطل واطمأنّ الدين. وعندما نتوّقف عند التفاصيل، فإننا نجد الإمام(ع) يُعنى بحلّ المشاكل الفكريّة والمسائل المعقّدة على الصعيد الفقهي وغيره في ما كانت تتعرّض له الخلافة من ذلك كلّه، كما كان يعطي الرأي في قضايا الحرب بالطريقة التي يحاول فيها المحافظة على حياة الخليفة الذي يقود الساحة في ذلك الوقت بعيداً عن كلّ الحساسيات الذاتيّة والمشاعر الرافضة. فمِن ذلك، أنّ عمر بن الخطاب استشاره في الخروج إلى غزو الروم، فقال له:

«وقد توكّل الله لأهل هذا الدّين بإعزاز الحوزة، وسَترِ العورة. والذي نصرهم، وهم قليلٌ لا ينتصرون، ومنعهم وهم قليلٌ لا يمتنعون، حيٌّ لا يموتُ.

إنّك متى تَسرِ إلى هذا العدوّ بنفسك، فتلقهم فتُنكَب، لا تكن للمسلمين كانفةٌ

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الكتاب: ٦٢، ص:٣٣٩-٣٤٠.

ـ عاصمة يلجأون اليها ـ دون أقصى بلادهم. ليس بعدك مرجعٌ يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرَباً، واحفِز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تُحِبُّ، وإن تكن الأخرى كنت رِدءاً للناس ومثابة للمسلمين»[1].

ومِن ذلك، أنّ عمر بن الخطاب قد استشاره في الشخوص لقتال الفرس بنفسه، فقال له:

«إنّ هذا الأمر لم يكن نصرُهُ ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة، وهو دين الله الذي أظهره، وجُندُهُ الذي أعدَّهُ وأمدَّهُ، حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع، ونحن على موعود من الله، والله منجزٌ وعده، وناصرٌ جنده. ومكانُ القَيِّم بالأمر مكان النِّظام من الخرز يجمعه ويضُمُّه، فإن انقطع النِّظام تفرَّق الخرز وذَهب، ثمّ لم يجتمع بحذافيره أبداً. والعرب اليوم، وإن كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع! فكن قُطباً، واستدر الرّحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنّك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدعُ وراءك من العورات أهمَّ إليك مما بين يديك.

إنَّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدَّ لكَلبهم عليك، وطمعهم فيك. فأمّا ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإنّ الله سبحانه هو أكرهُ لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأمّا ما ذكرت من عددهم، فإنّا لم نكن نقاتل في ما مضى بالكثرة، وإنّما كنّا نقاتل بالنّصر والمعونة»[2].

---

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ١٣٤، ص:١٣٧.

(٢) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ١٤٦، ص: ١٤٤-١٤٥.

المواقف السياسية في خدمة الوحدة

إنّنا نلاحظ في هاتين الكلمتين توجّهاً واضحاً نحو تصويب الحركة العملية في خطّ الوحدة الإسلامية في الدائرة الواقعية، باعتبار أنّ هناك جملة مصالح قد تحكم الساحات السياسية المتميّزة بالصراع الحادّ بين الشخصيات الفاعلة في المستوى القيادي، وربما أدّت المسألة في بعض الأوضاع والظروف الصعبة، إلى الوقوف موقف اللامبالاة إزاء الأخطار المحدقة به، لا سيما إذا لم يكن الصراع في المركز القيادي منطلقاً من طموح ذاتي، بل كان ناشئاً من الاقتناع بعدم شرعية الفريق المسيطر الحاكم، وانحصار الشرعية بالمعنى الإسلامي الدقيق بالفريق المعارض الموجود خارج الحكم، وهذه المسألة قد تدخل في الوعي الشرعي من جهة التكليف الملزم بالمواجهة وخوض التحدّي، ليعود الحقّ إلى نصابه من حيث هو حقّ لصاحب الشرعية من جهة، وللمسلمين من جهة أخرى.

ولكنّ الإمام عليّاً(ع) كان يفكّر بطريقة أخرى، فهو لا ينظر إلى القضيّة من حيث الاستغراق في الجانب المغلق منها، بل كان يفكّر بها من خلال النظرة الواقعية للأشياء، فقد لا تكون الظروف في تلك المرحلة ملائمة للتغيير، وقد يكون سقوط الخصم السياسي تحت تأثير الضغط العسكري من قبل الروم أو الفرس الرابضين في الموقف المعادي للإسلام، يؤدّي إلى سقوط الموقع الإسلامي كلّه، لتأثيره السلبي والخطر على الإسلام بذاته، لأنّ الشخص الذي يتولّى القيادة لا يمثّل الخصوصية الذاتية التي يتميّز بها شخصه، بل يمثّل الواقع الإسلامي القيادي الذي يتميّز به مركزه، ما يفرض على القياديين في الصفوف المعارضة أن يرتفعوا فوق خصوصيّاتهم الذاتية والشرعية من أجل حفظ هذا الموقع بالحفاظ على الشخص الذي يتولاه، خاصة في غياب أيّة إمكانية لابتعاده عن الساحة في الظروف الطبيعية، الأمر الذي يجعل المعادلة المطروحة في هذه

المرحلة هي إمّا أن يسقط الموقع الإسلامي والقوّة الإسلامية من خلال سقوط هذا الشخص، وإمّا أن يُحفظ هذا الشخص من أجل حفظ الموقع الإسلامي بالذات.

وهذا ما اختاره الإمام(ع) الذي يجد نفسه مسؤولاً عن سلامة الإسلام والمسلمين خارج نطاق الحكم بالمستوى نفسه الذي يعيش فيه المسؤولية عن سلامة الحكم الإسلامي وهو على رأسه. ولهذا رأينا الإمام يدخل في مناقشة متحرّكة حول كلّ القضايا التي كانت تدفع الخليفة إلى تهيئة الأمور بالطريقة التي كانت ستؤدي إلى الهزيمة من خلال بعض مستشاريه، بحيث استخدم الإمام(ع) في الكلمة الثانية العنصر الروحي في تهيئة الأجواء للانطلاق بالمعركة بعيداً عن الاتجاه المرسوم لها في ذهن الخليفة، وذلك ما ظهر من حديث الإمام بأنّ الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وأنّنا كنا نقاتل بالنصر والمعونة لا بالكثرة.

التعاضد بدل السُّباب

ونجد في بعض كلمات الإمام(ع) تأكيداً على الابتعاد عن الأساليب الحادّة التي قد تفرضها المشاعر المتوتّرة في حالات الصراع المذهبي والسياسي، لتكون تنفيساً عن العقدة المكبوتة في النفس وتفجيراً للغيظ الكامن في الذات، ومنها أساليب السُّباب التي قد تقترب منها أساليب اللّعن في ما تختزنه الذهنية الشعبية العامّة، باعتبارها لوناً آخر من ألوان السُّباب، مع ملاحظة أنّها ليست منه في المصطلح.

فقد نلاحظ أنّ الإمام(ع) ينهى عن السُّباب، لأنّه لا يعتبره من الصفات الحميدة التي توحي بالمحبّة والاحترام، كما أنه لا يرى فيه أسلوباً منتجاً في ساحة الصراع، لأنّه لن يؤدّي إلى الغلبة المُفضيَة إلى النصر، بل ربّما يؤدي إلى نوع من الإثارة

الحادة التي تستفز الجانب الآخر، فتقوّي إرادته في المواجهة، وترفع من مستوى التحدي لديه، وتعمّق الحقد في ذاته، لتتحوّل المسألة عنده إلى مسألة شخصيّة بدلاً من أن تكون مسألة سياسية.

إذا كانت المسألة بهذا الحجم في هذه الدائرة، فكيف تكون في الدائرة الإسلامية التي تقود إلى لون من المهاترات السلبية، حيث يسود السباب المتبادل الذي يطال الرموز الإسلامية التي يقدّسها المسلمون تبعاً لانتماءاتهم المتنوعة، ممّا لا يخدم الجوّ الإسلامي العام الذي يريدنا الله أن نرتفع به إلى مستوى العلاقات الروحية المنفتحة على كلّ مواقع الأخوّة والتعاون واللّقاء.

وهذا ما نلاحظه في الكلمة التي أطلقها الإمام عليّ(ع) عندما سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم في صفّين، قال:

«**إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتُم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العُذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللّهمّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحقّ من جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لَهِجَ به**»[1].

إننا، في قراءة سريعة لهذا النص، نستوحي رفض الإمام لأسلوب السبّ في طريقة التعبير عن موقفه السلبي تجاه الآخرين، لأنّ ذلك لن يؤدّي إلى شيء، لا سيما في معالجة خلافات المسلمين فيما بينهم، بل قد يمنع من حالة الانفتاح الروحي التي لا بُدّ أن تكون الهدف من كلّ الوسائل الضاغطة في نهاية المطاف.

إنَّ الإنسان إذا استطاع أن يفرغ قلبه من كلّ أفكار الشرّ ومشاعره، فإنّه يستطيع تحريك تصرّفاته بطريقة خيّرة، ما قد يثير في الطرف الآخر بعض أفكار الخير

---

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ٢٠٦، ص: ٢٣٦.

ومشاعره على طريقة الفعل وردّ الفعل في علاقات الناس ببعضهم البعض.

ولكنّ الإمام علياً(ع) الذي يدعو إلى إنتاج هذه الروح المنفتحة في شخصية المسلم المؤمن، وإلى إطفاء نار العداوة في قلبه، لا يوافق على إهمال القضايا التي يختلف فيها المسلمون وإغفالها وإبعادها عن ساحة الحوار، بحجّة أنّ ذلك قد يكون سبباً من أسباب إثارة الفتنة وتأجيج الصراع وتحريك الحساسيات، لتتحوّل الأحاديث فيما بينهم إلى نوع من المجاملة التي تخفي كوامن الأفكار أو نوازع النفوس وخفايا المشاعر، وما ينتج ذلك من حصارات قائمة على أساس التكاذب لا على أساس التصادق، بما يكرّس خطّ النفاق الاجتماعي الوحدوي، فيما المطلوب أن ينطلق المسلمون من موقع الإخلاص للحقّ وللإسلام في عقائده وأحكامه ومواقفه، ليتحاوروا على أساس الرغبة في الوصول إلى الحقّ في كلّ خلافاتهم، وليتجادلوا بالحكمة والموعظة الحسنة، وليعودوا إلى الله ورسوله، في ما صح عن الله ورسوله(ص)، ليحكما بينهم، وليدرسوا القضايا الفكرية بالأسلوب العلمي الذي لا تتدخّل فيه المشاعر الذاتية، لتكون القضية هي صراع فكر مع فكر لا صراع طائفة مع طائفة أو نزاع جماعة مع جماعة، ما يجعل من العناصر الذاتية في ساحة الخلاف أساساً للحديث أو العمل.

خلفيات وحدوية في إدارة الصراع مع الخارج

لقد انفتح الإمام علي(ع) على جميع القضايا باعتبارها متّصلة بالوجدان الرساليّ لا بالحالة الذاتيّة، وكان يدفع بهذا الأسلوب ليتعرّف الناس عليه ويفكّروا به ويعملوا وفق منهجه، ليرتفعوا إلى آفاق الله الواسعة من خلاله، وهذا ما عبّر عنه أحسن تعبير في نهج البلاغة، لا سيما في هذه الخطبة:

«**اللّهم إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس**

شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونُظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتُقام المُعَطّلةُ من حدودك، اللّهم إني أوّلُ من أناب، وسمع وأجاب»[1].

ولم يقتصر الأمر على هذه القضية، بل امتدّ إلى كلّ التفاصيل، وهذا ما ظهر جليّاً في مسألة خلافه مع الخوارج حول قضيّة التحكيم، فقد دخل معهم في حوار طويل من أجل مواجهة الموقف بالحُجّة، كما كان الحال مع طلحة والزبير ومعاوية، ولم يكن القتال الذي خاضه مع هؤلاء جميعاً قتالاً بسبب الاختلاف في الخطّ الفكري، بل كان قتالاً استهدف فرض النظام في المجتمع الإسلامي وحمايته من الانقسام الداخلي والفوضى العامّة، ولذلك فإنّه تحدّث في نهاية أيّامه عن مسألة الخوارج، فنهى عن قتالهم من بعده، لأنّه لم يقاتلهم من موقع اختلافهم معه في القناعات، بل من موقع اعتدائهم على الحرمات، وهذا ما جاء في كلمته:

«**لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه**»[2].

لقد عالج المسألة على أساس أنّ الذين طلبوا الحقّ فأخطأوا، لا بدّ من الدخول معهم في حوار ما دامت القضيّة عندهم قضيّة قناعة ذاتية، وذلك من موقع الرغبة في الوصول إلى الحقّ، ما يسمح بوجود قاعدة مشتركة للوصول إلى الرأي الصّحيح، أمّا الذين طلبوا الباطل فأدركوه، فإنّهم لا يتحرّكون من موقع شبهة، بل من موقع قرار وإصرار على العناد في مواجهة للحقّ بكلّ وسائل القوّة، فهم يهربون من الحوار الجدّي، ويتّخذون سبيل المخادعة والمخاتلة، حتى

---

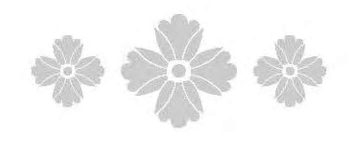
(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ١٣١، ص:١٣٤.

(٢) م.ن، الخطبة: ٦١، ص: ٥٣.

يربحوا الفرص الكفيلة بإيصالهم إلى أهدافهم وأطماعهم، بعيداً عن مسألة الحقّ والباطل في ما يأخذون به أو يدّعونه.

ولعلّ قيمة هذا المنهج العملي في حياة الإمام، أنّه كان قطب الرَّحى في تناول مسألة اختلاف الموقف من الخلافة، فهو صاحب القضيّة الفاعل، وليس صاحب الموقف المنفعل بما يتّصل بالآخرين، فقد انطلق الخلاف في حقّه أمام ما يلتزمه الآخرون من حقّهم، ولذلك كان منهجه ينطلق من عمق المعاناة التي سبّبها الارتباط بقضيّته الحقّة، لا من طبيعة المواقف المتعلّقة بقضايا الآخرين.

إنّ هذا التوجّه السامي للإمام عليّ(ع)، يفرض على الذين يلتزمون موقفه ويؤمنون بحقّه، أن يرتفعوا إلى مستوى وعيه الكبير في قضيّة الوحدة الإسلامية لمصلحة الإسلام كلّه، الأمر الذي يدفعهم إلى تجميد كثير من مواقفهم على هذا الأساس، وإلى أن يصبح شعاره شعارهم، هذا الشعار الذي أطلقه في كلمة حاسمة تلخّص محصّلة توجّهاته وتجربته مع الجميع: «**والله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين**»[1]، فيأخذون منه شرعية الموقف في تجميد بعض المواقف في قناعاتهم المحقّة، مبتعدين بذلك عن الانحراف عن الخطّ المستقيم في ذلك كلّه.



(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ٧٤، ص: ٦١.



بين معاناة الإمام زين العابدين(ع) وهمومه الوحدويّة

ونلتقي في خطّ الوحدة الإسلامية في خط أهل البيت(ع) بالإمام عليّ بن الحسين زين العابدين(ع)، الذي التزم بهدي الخطّ العلويّ في الانفتاح الروحيّ والعمليّ على القضية الإسلامية الكبرى، بعيداً عن كلّ الانفعالات والحساسيات وأجواء المأساة العميقة التي عاشها في نطاق حكم بني أمية، كما تمثلت في كربلاء، حيث عاش مع أبيه وإخوته وأهل بيته وأصحاب أبيه أقسى الفجائع التي تثقل الشعور والوجدان بالحزن والألم العميق، وتعرّض لأذى الأسر والسبي مع كلّ نساء أهل البيت(ع) وصحابتهم في رحلة السبي إلى الشام.

وربّما كان من طبيعة الأمور، أن تترك هذه المسألة الفريدة من نوعها تأثيراتها السلبية على الشعور الذاتي للإمام زين العابدين(ع) ضدّ بني أمية في حكمهم، وفي كلّ الأوضاع المتّصلة بهم في مواقع نفوذهم، وفي ساحات انتصاراتهم في الحرب والسلم.

ولكنَّ للإمام(ع) رأياً آخر في المسألة، فإنّه يلاحظ أنّ بني أميّة الذين لا يمثّلون شرعية الخلافة في حياة المسلمين، هم الذين يديرون دفّة الحركة الإسلاميّة للأمّة في الساحة، بحيث كان العنوان الذي يتحرّكون من خلاله هو عنوان الإسلام، فهم يخوضون حروب الإسلام ضدّ الكفر، ويواجهون تحدّيات الكافرين على أساس أنّها موجّهة ضدّ المسلمين في ما يعيشون فيه من شكل الحكم الإسلامي،

لأنّ المطلوب في تخطيط محور الكفر، إسقاط الإسلام في كلّ مواقع حركته شكلاً ومضموناً، بعيداً عن طبيعة الحكم الذي يمثّله من حيث شرعيته أو عدم شرعيته، ولذلك فإنّ الكافرين يتصرّفون مع الحكم الشرعي كما لو كان موجوداً بالطريقة نفسها التي يتصرّفون بها مع الحكم غير الشرعي، ما دام الهدف مشتركاً بين الموقعَين.

في ضوء ذلك، فإنّه كان يرى أنّ الحرب الدائرة في تلك المرحلة هي حرب الإسلام مع الكفر وحرب المسلمين مع الكافرين، بحيث تنعكس نتائجها الإيجابية في حال النصر أو الهزيمة على الواقع الإسلامي كلّه، فيما هو عنوان الإسلام، وفيما هم المسلمون واقعاً، لا على حكم بني أمية بخصوصيته الذاتية العائلية، لأنّ طبيعة الظروف والأسباب والوقائع والنتائج تفرض ذلك على صعيد النظرة الواقعية للأشياء، وهذا ما جعله يعيش الهمّ الكبير في وجدانه الإسلامي وفي تطلّعاته القياديّة والروحيّة والفكريّة، عندما كان يفكّر بأهل الثغور في مواقعهم المتقدّمة التي يتولّون فيها حماية حدود الدولة الإسلامية وحفظ المسلمين في بلادهم، ويقومون في بعض الحالات بالأعمال العسكرية الحادة عند تعرّضها للاعتداء، أو عندما يرون أنّ هناك ضرورة عسكريّة إسلاميّة لعمل وقائي أو هجومي لمواجهة بعض الأوضاع الصعبة، أو لخلق مواقع جديدة من أجل مرحلة جديدة للدّعوة أو للقوّة.

وكان يريد للمسلمين أن يعيشوا هذا الهمّ، ليتحوّل ذلك إلى مشاركة وجدانية قد تهيّئ الأجواء للمشاركة الفعلية، وتحقّق نوعاً من الوحدة الإسلامية في ما يطلقه الكافرون من تحدّيات القوّة في ساحة الصراع، أو في ما يطلقه المسلمون من هذه التحدّيات في عملية استعراضيّة للقوّة أو تحريك لها من أجل الضرورات الأمنية والسياسية.

وكان الدعاء لهم وسيلة من وسائل تعبئة الوجدان الروحي للإنسان المسلم في كلّ القضايا التي تدور حول مفردات الحرب في كلّ تفاصيلها، بحيث يلاحق فيها الإنسان في كلّ التفاصيل الصغيرة والكبيرة، ليعيش في كلّ الأجواء المحيطة بها أو المتحرّكة في داخلها، حتّى تتحقّق المشاركة في كلّ القضايا وفي كلّ الأجواء، كما لو كان الإنسان موجوداً في الساحة يعيش حالة من المعاناة الفعليّة، فتذوب كلّ التحفظات والتعقيدات، وتتلاشى كلّ الانفعالات، وتتوحّد كلّ المشاعر.

ولا بُدّ للوحدويّين الإسلاميّين من دراسة دقيقة شاملة للمضمون السياسي لدعاء الإمام زين العابدين(ع) لأهل الثغور، ليأخذوا منه الفكرة الإسلاميّة في التخطيط لتعبئة الأمة كلّها عسكريّاً وسياسيّاً وروحيّاً وفكريّاً واقتصاديّاً، حتى تتلمّس وحدتها الإسلامية أمام الخطر الداهم، وذلك من ضمن سعيهم لإضعاف المشركين والكافرين بمختلف الأساليب والوسائل التي تشغلهم عن توجيه قوّتهم ضدّ المسلمين.

الوحدة بين العصبية وجادّة الحقّ

وقد نلتقي بالتفكير الوحدويّ في كلمة الإمام زين العابدين(ع) التي يرويها الزهري في تحديد العصبيّة، حيث قال:

«**العصبيّة التي يأثم عليها صاحبها، أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبيّة أن يحبّ الرجل قومه، ولكن من العصبيّة أن يعين قومه على الظلم**»[1].

فقد نجد في هذه الكلمة الخطّ الإسلامي الأخلاقي في طريقة إدارة الإنسان المسلم علاقته بالآخرين الذين يلتقي معهم في النسب أو في الوطن أو في

(١) الكافي، ج:٢، ص: ٣٠٨، رواية: ٧.

القوميّة أو في الدين أو في المذهب، لتجعل من الإنسان المنتمي إلى أيّة دائرة من هذه الدوائر إنساناً موضوعياً يفكّر في القضايا المطروحة في الساحة تفكيراً متوازناً لا أثر فيه للانفعال في عناصره الذاتيّة، بل تنطلق القضيّة لديه من موقع طبيعة المسألة في عناصرها الموضوعيّة، فإذا أردنا أن نتمثّل القضيّة في الدائرة الإسلاميّة، فإنّ السُّني لا يتعصّب ضدّ الشيعيّ فيظلمه لخصوصيّة شيعيّته، كما أنّ الشيعيّ لا يتعصّب ضدّ السنيّ فيجور عليه لموقع سنيّته، بل يعمل على أساس دراسة الموضوع بذاته بعيداً عن صفة الشخص من حيث الانتماء المذهبي فيما هي مقاييس العدل في الانطباع وفي الممارسة وفي الحكم، ما يؤدّي إلى تأكيد الذهنية الموضوعيّة العقلانية في ما توحي به من الروح الوحدويّة المرتكزة على أساس الحياد الفكريّ، وفي النظرة إلى الأشياء، بحيث يكون الإنسان إنسان العقل في خطّ الحقّ لا إنسان الانفعال في خطّ العصبية.

وقد نستوحي من الكلمة المعروفة عن الإمام زين العابدين(ع) في ما رواه بعض أصحابه: «**أحبّونا حبّ الإسلام**»[1]، أنّ خطّ أهل البيت(ع) هو أن ينطلق المسلم في حركة العاطفة، فيما هو الحبّ الروحي لأهل البيت(ع)، من خلال الصّفة الإسلاميّة لمضمون الحبّ لا من خلال الصّفة الذاتية، ما يجعل الإسلام في انفتاحه أساساً للعلاقات بالمستوى الذي يخضع فيه للموازين الإسلاميّة الأصيلة، فيؤدّي إلى الانفتاح من موقع الحوار والمحبّة.

الصادق(ع): إلغاء التحفّظات لمصلحة القضيّة الكبرى

وعلى هذا الخطّ نفسه، كان الإمام جعفر الصادق(ع) يدعو الشيعة إلى الانفتاح على سائر المسلمين من أهل السُّنة، والاندماج في المجتمع الإسلامي على

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، باب: ٥، ص:٧٣، رواية: ٥٨.

أساس المشاركة العامّة، فكان يقول في ما رواه عبد الله بن سنان عنه: «**أوصيكم بتقوى الله، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتذلّوا، إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿قُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة: ٨٣] عودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، واشهدوا لهم وعليهم، وصلّوا معهم في مساجدهم**»[١].

وعن إسحاق بن عمار قال: قال لي أبو عبد الله ـ جعفر الصادق ـ(ع): «**يا إسحاق، أَتُصلّي معهم في المسجد**»؟ قلت: نعم. قال: «**صلّ معهم، فإنّ المصلّي معهم في الصفّ الأوّل كالشّاهر سيفه في سبيل الله**»[٢].

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة عنه وعن أبيه الإمام محمد الباقر(ع)، فإنّ المفهوم منها أنّ القضيّة ليست قضيّة تقيّة يفرضها الخوف على النفس، بل قضيّة إيجاد حالة من الانفتاح الإسلاميّ بعيداً عن التحفّظات المذهبيّة، بحيث تتحرّك في طبيعتها مع الخطّ الأخلاقيّ الإسلاميّ العام، في ما يمثّله حسن الخلق في شخصيّة الإنسان المسلم، وهذا ما يوحي به الحديث الذي رواه أبو علي، قال: قلت لأبي عبد الله ـ جعفر الصادق(ع): إنّ لنا إماماً مخالفاً وهو يبغض أصحابنا كلّهم، فقال: «**ما عليك من قوله، والله، لئن كنت صادقاً لأنت أحقّ بالمسجد منه، فكن أوّل داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس وقل خيراً**»[٣].

إنّ الإمام الصادق(ع) كان لا يريد للشيعة أن يتحرّكوا على أساس أن تكون لهم مساجدهم الخاصّة لتكون للسنّة مساجدهم الخاصّة أيضاً، بحيث لا يجتمعون للصلاة في مسجد واحد، لأنّ ذلك يُضعف الإسلام في صورته وفي حركته في الوجدان العام للمسلم، لا سيّما في صلاة الجماعة أو الجمعة، التي هي المظهر العام الذي يوحي بالقوّة من خلال وحدة الموقف بين يدي الله،

(١) بحار الأنوار: ج:٧٤، باب: ١٠، ص:١٥٩، رواية: ١٤.

(٢) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج:٣، باب: ١٣، ص:٢٧٧، رواية: ١٢٩، دار الكتب الإسلامية، طهران.

(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج:٣، باب:١٣، ص:٥٥، رواية: ١٠٢

ولذلك أراد للشيعة إلغاء التحفّظات المعيّنة في شروط إمام الجماعة لمصلحة القضيّة الكبرى للأمة.

وإذا كانت هناك بعض الروايات التي تخالف هذا الاتّجاه، فإنّها قد تنظر إلى بعض الأوضاع الخاصّة المتّصلة بالواقع الشيعيّ الخاص في بعض توازناته في الالتزام بالخطّ الدقيق في حركة الولاية العامّة.

الابتعاد عن المسّ بمشاعر المسلمين

وقد نستوحي من كلمة: «**أحسن خلقك مع الناس وقل خيراً**»، والاستشهاد بالآية الكريمة: ﴿**قُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾، توجيه الشيعة إلى عدم خوض التحدّيات بطريقة الإساءة إلى مشاعر المسلمين الآخرين من خلال المسّ بالأشخاص الذين يختلف المسلمون حولهم في المواقع الكبرى التي انطلقوا فيها، في ما اعتاده بعض الناس من أساليب اللّعن والسبّ الذي يثير الشر، ويدفع بالوضع الإسلامي إلى مزيد من التعقيد، ويخلق لوناً من الإثارة والتصرّفات المضادّة وبالعكس، بما يتعارض مع المنهج القرآني الداعي لقول التي هي أحسن، والدفع بالتي هي أحسن، والجدال بالتي هي أحسن في كلّ ما يختلف فيه الناس، في ما يؤمنون به أو يقدّسونه أو يعظّمونه، فإنّ ذلك هو الذي يحقّق اللقاء بين المسلمين، ويفتح قلوبهم على الحقّ، ويحرّك خطواتهم نحو الوحدة.

وقد روي عن الإمام جعفر الصادق(ع) أنّه قال لأصحابه: «**ما أيسر ما رضي له الناس عنكم كفّوا ألسنتكم عنهم**»[1]، فلم تكن القضية لدى الناس أن تنسجم مع أفكارهم لتبرِّر تشبّثك بمواقفك، بل القضيّة هي أن لا تبادر إلى مواجهتهم بالكلمات القاسية في ما قد يصدر عنك من كلمات التجريح الانفعالي في نطاق

(١) الكافي، ج:٨، باب: ٨، ص:٣٤١، رواية: ٥٣٧.

كلمات اللّعن والسبّ ونحو ذلك، وهذا هو المطلوب في سلوكك مع الناس في ما يتّصل بالأشياء التي يحترمونها والأشخاص الذين يعظّمونهم. وتبقى الخلافات الفكريّة أو الفقهيّة في دائرة البحث والنقاش والحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

إنّ هناك فرقاً بين الجدال في الرأي وبين التجريح في الكلمة، وقد يخلط الناس فيما بينهم، فيخيّل إليهم أنّ الإخلاص لأفكارهم وعقائدهم هو أن يعبّروا عن رفضهم للعقائد الأخرى بأساليب انفعاليّة جارحة، لأنّ ذلك، في رأيهم، يعمّق إحساسهم بالرفض، ويؤكّد موقفهم بالتبرّي من رموز الفكر الآخر الذي قام في الماضي ويقوم في الحاضر، باضطهاد الفكر الذي يتبنّونه، ويهيّئ الأجواء النفسيّة للتعبئة الروحيّة والشعورية ضدّ النهج الآخر.

خوض الصراع الفكري على قاعدة أخلاقية

وقد نلاحظ في دراستنا للسلوك العملي لأئمة أهل البيت(ع)، أنّهم كانوا ينطلقون مع المسلمين كلّهم بروح منفتحة في علاقاتهم الثقافيّة والاجتماعيّة، فكان تلامذتهم يمثّلون التنوّع في المذاهب الكلاميّة والفقهيّة، وكانت مجالسهم تضمّ الناس المختلفين في أفكارهم ومواقعهم، من دون أن تجد أيّة عقدة أو مشكلة لدى أيّ واحد منهم في ما يسمع من الكلام، أو في ما يواجهه من المواقف، أو في ما ينفعل به من الجوّ والنظرة والأسلوب، ولذلك كانوا محل تقدير المجتمع الإسلامي كلّه، حتى من الذين لا يعتقدون بإمامتهم بالمعنى المصطلح في علم الكلام للإمامة، لأنّهم كانوا يؤمنون بأنّ الروح المنغلقة والصدر الضيّق، والكلمة المنفعلة والأسلوب المتشنّج، والنظرة القاسية والأجواء المضادّة، لا تحقّق أيّة نتيجة لمصلحة الفكر الذي تؤمن به، والعقيدة التي يلتزمونها، وكانوا يؤكّدون

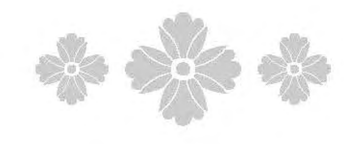
على أصحابهم بأن يدرس كلّ واحد منهم نفسه، وأن يُعامل الآخرين بالطريقة نفسها التي يريد أن يعاملوه بها وفق القاعدة الأخلاقيّة المأثورة: «**عامل الناس بما تحبّ أن يعاملوك به**»، لأنَّ الصراع الفكريّ يرتبط بالأخلاق بقدر ما يرتبط بالفكر، ولا بُدّ للفكر أن يعيش شيئاً من العاطفة في حركته، كما تحتاج العاطفة إلى شيء من الفكر في توازنها.

وأخيراً، فإنّنا نعتقد أنَّ مسألة الوحدة الإسلاميّة هي مسألة الإسلام في قوّته وثباته وصلابته وفاعليّة حركته وشموليّة نظرته إلى الحياة، لذا لا بُدّ لنا أن نحرّكها في حياتنا، وأن نفرّق في وعينا الإسلامي بين صلابة الموقف وقسوة الأسلوب، وأن نميّز بين الحالة النفسيّة التي تؤدّي إلى النزاع، وبين الحالة النفسية التي تؤدّي إلى التفاهم والوفاق.

لا قيمة للتعصّب أمام هيمنة الكافرين

ولا بُدّ لنا أن نعي بأنّ الإخلاص للرسول ولأهل بيته، سلام الله عليهم أجمعين، يتمثّل بالإخلاص للإسلام في سلامة موقفه أمام المواقف الأخرى، وفي قوّة موقعه أمام المواقع الأخرى، لأنّنا إذا ربحنا الإسلام فقد ربحنا الانفتاح على رموزه وقواعده ومناهجه وحركته، وإذا خسرنا الإسلام في معركتنا مع الكفر، فإنّنا نخسر كلّ شيء، لأنَّ الرموز التي نحترمها، والحقّ الذي نلتزمه، والموقف الذي نتعصّب له، لن يكون لأيٍّ منها أيّ موقع أو أيّ دور في الساحة التي يهيمن فيها الكافرون على المسلمين، فلا قيمة لأيّة كلمة من كافر أو منافق في مدح أيّ رمز من رموزنا من أهل البيت(ع) إذا كان يقصد في كلمته التعظيم الشخصي بعيداً عن الرسالة، في الوقت الذي يقف فيه معادياً للرسالة كلّها، ولا قيمة للدعم الذي يمكن أن نحصل عليه من قبل القوى الكافرة الطاغية للمذهب الذي نلتزمه

إذا كانت هذه القوى تتحرّك في هذا الاتجاه لإضعاف الإسلام بطريقة تعميق الخلاف بين المسلمين، لذلك فإنّنا نتصوّر أنّ من الضروري التخطيط الفكريّ والعمليّ للوحدة الإسلامية في دائرة أي مذهب إسلامي، حتى لا يغلب علينا الإخلاص لخصوصيّة المذهب بعيداً عن الإخلاص لشموليّة الإسلام. ومن الضروري، بالإضافة إلى ذلك، أن نعمّق التزامنا بأشخاص العقيدة من الناحية الرساليّة كرموز للإسلام نُخلص لهم في خطّ الرسالة، لنختار الموقف في هذه الدائرة، حتى تمتزج العاطفة بالعقل والفكر والحياة، فيما هي علاقة الإنسان بالله وبالإنسان والحياة من خلال الله.





الحوار الموضوعي بين الأخوة
طريقنا إلى الوحدة

هل بقي لنا مجالٌ للاستهلاك، ونحن أمّة تحوّلت إلى أمّة مستهلِكة، بدلاً من أن تكون أمّة منتجة؟ هل بقي هنالك مجالٌ للاستهلاك في موضوع الوحدة الإسلامية لنتحدّث عنه؟ هل بقيت هناك كلمات؟

ربّما يشعر الإنسان في كثير من قضايانا التي نعيشها وتهزّ الأرض تحت أقدامنا، أنّ المسألة لا تتّصل بطرح النظريات أو إطلاق الشعارات، ولكنَّ المسألة هي مسألة مَن نحن في كلّ قضايانا؟ هل نحن نعيش إسلامنا خارج دوائر ذواتنا؟

ربّما يبدأ الإسلام في عقولنا قضيّة، ولكنّه ينتهي إلى ذات، ذات الشخص، أو ذات الجمعيّة، أو ذات الحزب، أو الحركة، أو الطائفة، بحيث تكون المسألة كيف تَسْلَم الذات لأنّها تختصر الإسلام في داخلها، وكيف يسْلَمُ الحزب أو الحركة أو المنظّمة لأنها تختصر الإسلام في داخلها!

أسلمة العالم

لنجعل الإسلام خارج نطاق الذات الشخصيّة والجماعيّة، ولتبقَ الذات هي التي تحمي الإسلام. المسألة مسألة أخلاقيّة في معنى القيمة، وليست مسألة إسلاميّة فحسب. أنا لا أريد أن أوزّع الاتهامات، فقد أكون من بين هؤلاء الذين

أتحدّث عنهم، لأنَّ على الإنسان أن ينتقد نفسه، تماماً كما قال ذلك الشاعر الشيخ محمد رضا الشبيبي:

كلّنا يطلب ما ليس له　　كلّنا يطلب ذا حتَّى أنا

القضيّة قبل أن نتحدّث بالوحدة، هي ما هو الإسلام فينا؟ هل نحن ننفتح على الإسلام في رحابته؟ كيف ينفتح على الإسلام من يعمل على تدمير مسلمين آخرين، بحجّة أنّه يختلف معهم في قضيّة كلاميّة أو فقهيّة؟ كيف يمكن أن يكون لنا إسلام يحمي الوحدة، ونحن قد ورثنا هذا التمزّق وهذه الأنانيّة الذاتيّة من المذاهب الفقهيّة والكلاميّة المتناحرة، ثم ورّثناها إلى الحركات الإسلاميّة؟

فيما المطلوب منك ـ أيّها المسلم ـ أن تكون حركيّاً تعمل من أجل أسلَمة العالم، أن يكون الإسلام أفقك تماماً كما هو العالم كلّه أفقك، إذ ليس من مصلحة الإسلام في شيء أن تظلّ تعيش من أجل أن تكون حركتك الإسلاميّة هي الحركة الوحيدة، وتدفع الآخرين أن يبتعدوا عن الساحة، فتعقّدهم وتحاصرهم وتخرّب خططهم، علماً أنّك لا تستطيع أن تملك الساحة، وهو ما يؤدّي إلى إسقاط الإسلام والساحة!

القضيّة هي قضيّة هل نحن جادّون في مسألة الإسلام؟ لو أردنا أن ندرس ـ وقلت إنّها مسألة أخلاقيّة ـ واقعنا الإسلاميّ المذهبيّ والحركيّ، فهل نرى من إسلام أخلاقيّ في معنى القيمة في علاقاتنا مع بعضنا البعض؟ إننا نتكاذب فيما بيننا، حتى أنّنا نستعمل التقيّة مع بعضنا بعضاً. كنّا نقول إنّه لا بدّ لنا أن نكون واقعيّين، وأن نعيش السياسة على أساس الواقع لا على أساس المثال الخيالي، ولكن ليس معنى أن تكون واقعياً، أن تخضع للأمر الواقع، وأن تجعل مسألة الصدق استثناءً في سياستك، فتشرّع الكذب بالعنوان الثانويّ وغيره، ولتكون هذه هي القاعدة، لأنَّ هناك مصلحة تفرض كذباً هنا وهناك.

الصراحة

قولوا ـ وأنا من بينكم ـ هل نملك أن نتصارح فيما بيننا؟ هل يفتح أحدنا قلبه للآخر في ما يتحسّسه معه؟ أنا أشكّ أنَّ الساحة تَقبلُ الصراحة، وهذه حقيقة نعيشها، لا فيما بين المسلمين على مستوى التنوّع المذهبي، ولا بين المسلمين على أساس التنوّع الحركي، بل على مستوى كلّ حركة في داخلها، وكلّ مذهب في داخله. الله سبحانه وتعالى، أراد لنا أن نجادل أهل الكتاب بالّتي هي أحسن، فهل يستطيع أحد في هذا المذهب أو ذاك المذهب، أو في هذه الحركة أو في تلك الحركة، أن يجادل الذين معه بالتي هي أحسن؟ هل نقبلُ ذلك؟ هل هناك حريّة في داخل المذهب لأتباع المذهب ليصحّحوا ما يفسُد هنا ويفسُد هناك؟ هل هناك حرية في داخل الحركات الإسلاميّة لتنقد القاعدةُ القمّةَ أو لتنقد القمّةُ بعضها بعضاً؟

إننا نعي على بعض الناس أنّهم يكفّرون مذهباً في أحد المواقع، فيما نحن نمارس الفعل نفسه في موقع آخر، حتى أصبحت مسألة التكفير والتزندق والانحراف أسلوبنا الغوغائي الذي نستعمله في الساحة.

مَن الذي يقف أمام قوله تعالى عندما ندير علاقتنا ببعضنا بعضاً: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء : ٣٦]؟ مَن الذي يُراقب ربّه في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات : ٦]﴾؟

هناك فرق بين الالتزام وبين التعصّب. نحن لا نماري الالتزام، فهو الذي يربطك بالفكرة ويحرّكك في خطّها وينفتح بك على أهدافه. أما نحن، فننتمي إلى أهل العصبيّة التي حدّدها الإمام علي بن الحسين زين العابدين(ع) بقوله:

«**العصبية التي يأثم عليها صاحبها، أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحبّ الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يُعين قومه على الظلم**»[1]. ألا نعين قومنا على الظلم؟ أيّ محازبٍ، إذا رأى فرداً من مذهبه أو من حزبه أو من حركته يصطدم مع إنسان آخر، حتى لو كان الحقّ مع ذاك والباطل مع صاحبه، ألا يدعمه ويؤيّده؟ هل هناك أخلاقية تجعلنا نقف مع ذاك ضدّ صاحبنا؟

الوحدة روحيّة

لا أريد أن أجعل من نفسي واعظاً، فقد أكون بحاجة إلى الموعظة، ولكنّي أتحدّث عن الواقع وعمّا نتحسّسه في الساحة، لذلك علينا أن نفكّر: هل نحن إسلاميّون بحيث يعني الإسلام لنا شيئاً؟

لماذا يقبل الكفرُ الآخرَ بكل تنوّعاته السياسيّة والفكريّة، ونحن لا نقبل الآخر حتّى ولو كان مسلماً؟ إنَّ الإسلام قَبِلَ الآخر غير المسلم ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ [آل عمران : ٦٤]، اعترفَ بوجوده وتعايشَ معه ونظّم العلاقات الموضوعيّة الإنسانيّة معه، سواءً كانت علاقات معاهدة أو ذمّة أو ما إلى ذلك... ولكننا لا نعترف بالآخر.

الأحزاب في الغرب تعترف ببعضها البعض، وربّما أيّد هذا الحزب مشروعاً يطرحه الحزب الآخر، لأنَّ المسألة عندهم هي مسألة مصلحة أوطانهم وليست مسألة التعصّب لأحزابهم. لقد تجاوزوا العصبيّة وانفتحوا على الموضوعيّة، ولذلك استطاعوا أن يتحاوروا في الهواء الطلق. أصبح أحدهم لا يخافُ على فكره من أن يناقشه الآخر حتى في أصوله، لأنَّ هناك نوعاً من أنواع الإيمان ـ بطريقةٍ أو

---

(١) الكافي، ج:٢، ص:٣٠٨، رواية: ٧.

بأخرى على طريقتهم الخاصّة ـ بالحقيقة الموضوعيّة التي يعيشونها.

ونحن كمسلمين لا نقبل الآخر، السُّني لا يقبل الشيعيّ، والشيعيّ لا يقبل السُّني، حتى لو تحدّثنا في الهواء الطلق بالوحدة الإسلاميّة، لكنّهم ﴿وإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ إلى شياطين الطائفيّة ﴿قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] ألا نقول ذلك لبعضنا بعضاً؟ ألا نقول ذلك وراء الكواليس؟

لماذا لم نستطع أن نجذِّر في داخل قاعدتنا الإسلاميّة ـ نحن العلماء والمثقّفين ـ معنى الوحدة الإسلاميّة، ومعنى قبول الآخر في الخطوط الإسلاميّة الواحدة؟

إنّنا نخاف من ذلك ونخاف من أن تنفتح قاعدتنا السُّنيّة على الشيعة، وقاعدتنا الشيعيّة على السُّنة، كما نخاف أن تنفتح قاعدتنا الحركيّة على القاعدة الأخرى، لأنّهم قد يسلبونا هذا وذاك.

الوحدة الإسلاميّة وحدة روحيّة قبل أن تكون مشروعاً، وهي روحيّة ترتبط بالوجدان الإسلاميّ الذي يجعل المسلمين يشعرون بالقضايا الإسلامية الثقافية ليقفوا من أجل حماية الإسلام الثقافيّ في الأصول الأساسيّة للعقيدة، وليقفوا من أجل حماية الخطوط الإسلاميّة في الشريعة الإسلاميّة أمام الذين ينتقدونها، وليساند المسلمون قضايا المسلمين الحيويّة، سواءً كانت محليّة أو إقليميّة أو عالميّة.

أن تكون وحدوياً هو أن تشعر أنَّ الإسلام يعني لك شيئاً، وأنّك تُثْكَل إذا سقط هناك أيّ موقعٍ أو حدث أيّ اهتزاز لأيّ موقعٍ آخر.

لماذا نختلف؟

أن نكون وحدويّين هو أن نعيش المسألة الإسلاميّة بكلّ جدّ، ولذلك أنا أتساءل: لماذا لم نستطع في لبنان أن نجعل المقاومة الإسلاميّة منفتحة على كلّ الواقع الإسلامي؟

لماذا نسمح لمتحدِّث هنا ومتحدِّث هناك أن يقول إنّها مقاومة شيعيّة؟ لماذا لم نستطع أن نؤسّس اتحاداً للحركات الإسلاميّة؟ ولا أقول وحدة، باعتبارها في الظروف الراهنة طموحاً خياليّاً قد نتصوّره. هل تقبل أيّ حركة إسلامية أن تدخل في اتحاد جبهوي أو أيّة صيغة أخرى مع حركة إسلامية على أساس خطوط واضحة على الأقلّ في المسألة السياسيّة؟

لماذا نختلف عندما تكون هناك جولة انتخابيّة؟ لماذا نختلف بحيث يذهب هذا الفريق الإسلاميّ الحركي هنا ويذهب ذاك هناك، ولا يمكن التفاهم لا على الخطوط ولا على البرامج ولا على الأشخاص، في حين أننا نعمل من أجل قوة الإسلام في لبنان؟

المفروض أنّ الحركيّين هم الطليعة الواعية في الأمّة، فَهُم الذين تجاوزوا الفواصل والتفاصيل، لأنهم يعملون على أن تكون كلمة الله هي العليا. أليس هدفنا أن نؤسلم العالم؟ ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ [سبأ : ٢٨]، لكن ألا يحاول كلّ واحدٍ منّا أن يعيش في داخل إطاره، ليكون لنا إسلام لبنانيّ، وإسلام جزائريّ، وإسلامٌ مصريّ... إلخ، بتأثير من الاستكبار العالمي الذي عمل على أن يجعل هناك شخصانيّة حركيّة في هذه الحركة أو في تلك؟

يجب أن تكون لنا روحيّة الحركة الإسلاميّة، بالطريقة التي تجعل كلّاً منّا لا يشعر أنّه يملك الحقيقة كلّها، ولكن يعي أنّه يملك وجهة نظر يقتنع بها في فهم الحقيقة،

وعليه أن يستمع إلى وجهة النظر الأخرى حتى تغتني المعرفة. وقد كنّا دائماً نردّد لكثير من المثقّفين غير الإسلاميّين، أنّ أسلوب الحوار في الإسلام لم يتقدّمه أسلوب في إنسانيّته وفي موضوعيّته، ولن يتقدّمه أسلوب، لأنّه في نهاية المطاف يتمثّل في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]... قالها الله تعالى على لسان رسوله وهو الذي جاء بالصدق وصدّق به. لقد قال له، عندما تتحاور مع الآخر لا تُدخل ذاتك، لا تُدخل إيمانك في عمق وجدانك في ساحة الحوار، قُل لمحاورك إنَّ هناك حقيقة ضائعة بيننا، قد أكون على ضلال وأنت على هدىً، وقد أكون على هدىً وأنت على ضلال، فتعال لننطلق معاً لنتحاور، فلعلّنا نكتشف الحقيقة الضائعة معاً لنتوحّد، أو يكتشف أحدنا ذلك ليفهمه الآخر، إذا لم يقتنع به.

هل نحن قرآنيّون؟

هذا كلام القرآن، فهل نحن قرآنيّون في هذا المستوى؟ هذه المسألة تتّصل بالأخلاقيّة الثقافيّة الإسلاميّة، في الخطّ الثقافيّ الذي نريد أن نقابل به العالم في مضمون الفكرة وفي أسلوبها وفي أسلوب الحوار، فهل نحن في هذا الخط؟

كلّنا نعرف أنَّ الوحدة من الممنوعات الاستكباريّة، وأنَّ الوحدة بين المسلمين هي من الممنوعات الكافرة، سواء كانت تبشيريّة أو غير تبشيريّة. إذا كنا نعرف أنَّ القوم يمنعون الوحدة من أجل أن يبقى العالم الإسلاميّ خاضعاً لاقتصادهم وسياستهم وأمنهم وثقافتهم، وإذا كنا نعرف أنَّ الكفر يعمل على أن يخترق بلدان المسلمين كإندونيسيا وماليزيا وإفريقيا وغيرها... من أجل أن يُبعد المسلمين عن الإسلام إذا لم يستطع أن يدخلهم في غيره، إذا كنّا نعرف ذلك، ونعرف، إلى جانب ذلك، أنَّ الطريق إلى هذا لا يمكن أن يمرّ بالتعصّب المذهبي، ولا يمكن أن يمرّ بالشخصانيّة الحركيّة، ولا يمكن أن يمرّ بعبادة الشخصيّة، إذا كنا نعرف

ذلك فماذا ننتظر؟ هل ننتظر أن يأتي من المريخ أو غيره من يخلّصنا من هذا ونحن نملك الأدوات ونملك الوسائل ونملك القاعدة؟

إنَّ قاعدتنا الإسلامية، هذا الشعب، هؤلاء المسلمون العاديّون، هؤلاء الذين نشعر بعنفوان عندما نتحدّث عنهم بأنّهم مسلمون تقليديّون ونحن مسلمون طليعيّون واعون، هؤلاء لا يعوزُهم الإخلاص، وإذا رأوا كلمة تنفتح على عمق الإخلاص ورأوا هناك واقعية، فإنّني أقول لكم إنّهم أقرب إلى التخلّي عن التعصّب حتى من العلماء ومن المثقّفين. نحن الذين نصنع التعصّب فيهم، نحن الذين نثقفهم ثقافة عصبية، نحن الذين نقول لهم إنَّ الآخر ليس مسلماً إلاّ في الظاهر، وهكذا... أليست المسألة كذلك؟

الأمّة والتفاصيل

إنَّ لدينا قاعدة إسلاميّة رائعة، القاعدة الإسلاميّة في فلسطين، الطفل، الشيخ، الشاب المثقّف، غير المثقّف، تؤمن بالمسألة الفلسطينيّة وفي بُعدها الإسلامي. أنا أعرف أنّ الفلسطينيّ العاديّ الذي يتحرّك من خلال عمق إسلامه تاريخيّاً وفكريّاً وشرعيّاً قد انفتح على الإسلام. وهو ربّما تغيب عنه القيادة إلاّ أنّه يستمر في مقاومته، وسيبقى مرتبطاً بالإسلام، ولو حدّق بهذه القيادة أو تلك القيادة... وكذلك الأمر هو هؤلاء الشباب في المقاومة الإسلاميّة الذين تختلف ثقافتهم، وتختلف أوضاعهم، وربما يكون أحدهم قد وُلِد وفي فمه ملعقة من ذهب، ومع ذلك عاشوا الجهاد على أساس مفهومه الإسلامي.

وهذه الأمّة أيضاً تتعاطف مع المجاهدين، هذه الأمّة الإسلاميّة التي رأيناها في كلّ موقفٍ من مواقف التحدّيات الأميركيّة والإسرائيليّة، رأيناها تقف وتجتمع بعيداً عن كلّ الإقليميّات، وبعيداً عن كلّ القوميّات. إنّها أمّة جيّدة، لا

يزال الإسلام فيها عاطفة وحسّاً، ولكن كيف نقود هذه الأمّة إلى مضمون الإسلام وإلى حركته؟ وكيف نفتح عقل هذه الأمّة عليه في كلّ رحابته؟ وكيف نفتح قلب هذه الأمّة عليه في كلّ مشاعره وأحاسيسه؟

إنّني أرى أنَّ هناك حرباً عالميّة كافرة استكباريّة على الأمّة الإسلاميّة كلّها، وعلى العالم الإسلاميّ كلّه. الأرض تهتزّ تحت أقدامنا، إنّهم يتحدّثون عنّا ونتحدّث نحن بأنَّ هناك حالة انعدام الوزن في الواقع العربي وفي الواقع الإسلامي. هناك انعدام وزن سياسيّ واقتصاديّ وعسكري. وإذا لم تهزّنا هذه التحدّيات الكبرى، فأيّ شيء يهزّنا، هل نقول مع المتنبي:

مَنْ يَهنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ   مَا لجرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

إذا لم تستطع جراحنا أن تهزّنا، فالكلمات والخطابات والقرارات وما إلى ذلك لا يمكن أن تُلامس أيّ شيٍ ولو السطحيّ من مشاعرنا.

المسألة أنَّ هناك استلاباً للواقع، فبعد أن كانت القضيّة قضيّة فلسطين، أصبحت القضيّة قضيّة الخليل في تفاصيل شوارعها وقضيّة المسجد الأقصى وما حوله، وأصبحت القضيّة في لبنان «جزين» وما إلى ذلك.

لقد أدخلونا في التفاصيل حتى ننسى القضيّة، ونسينا القضيّة. أصبحت كلمة أنَّ لنا فلسطين بأجمعها كلمةً خارجة عن الاعتدال السياسي، وعن الواقعية السياسية، أصبحت كلمات المتطرّفين الحالمين.

لقد أدخلونا في التفاصيل حتى طبّعوا الأمة، لتكون كلّ قضيّتها متى تتمّ التسوية ومتى يمكن أن يكون الحلّ السلمي. أصبحت الذهنيّة السياسيّة للأمّة ـ لا شعورياً ـ هي مسألة الحلّ السلمي الذي أصبحوا يشعرون فيه بأنّه سوف يتخفّفون من خلاله من التعب.

هل نقول إنّنا تعبنا وأتعبنا الأمّة معنا؟ لماذا فشلنا في أن نُبقي فلسطين في وجدان الإنسان المسلم العاديّ من الأمة؟ ماذا أصبحت المسألة؟ الأراضي المحتلّة، ثم هُرِّبَت الأراضي المحتلة فأصبحت مسألة الاستيطان.

فليتحوّل «التجمّع» إلى ساحة حوار ومصارحة

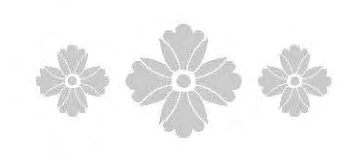
إنَّ حركة «تجمع العلماء المسلمين» هي الحركة الوحيدة الموجودة في العالم الإسلاميّ، التي يلتقي فيها علماء السُّنة وعلماء الشيعة في موقع واحد ويدرسون القضايا بحجم إمكاناتهم، وبحجم تجمّعهم وبحجم الحساسيات المحيطة بهم، يدرسون قضايا الأمّة، وواقع الأمّة. إنّني أرجو أن يبقى هذا التجمّع، وأقول لأصدقائنا وأحبّائنا مِنْ أعضائه: ليكن لكم الإصرار حتى الشهادة في أن يبقى التجمّع.

ربّما تواجهون الكثير من المشاكل الداخليّة والخارجيّة، ربّما تواجهون الكثير من الضغوط هنا وهناك، لكن تذكّروا أنَّ هذه التجربة تبقى، مهما كان حجمها، نقطة الضوء في كلّ ظلام العصبيّات في واقع المسلمين. إنّني أريد لكلّ إخواننا من علماء الشيعة والسُّنة، ولا سيّما الحركيّين منهم، أن يعملوا في داخل هذا التجمّع، لأننا كلّما استطعنا أن نجعل القاعدة أوسع، كلّما استطعنا أن نجعل الفكرة أعمق، وكلما استطعنا أن نجمع المفكّرين والمثقّفين من المخلصين في الحركات الإسلاميّة وفي غير الحركات الإسلاميّة من الحركيّين في داخل وجدانهم، استطعنا أن نجعل من التجمّع ساحة حوار في داخل التجمع العلمائي، الحوار العلميّ الموضوعيّ الذي ينطلق فيه العلماء من الشيعة ومن السُّنة ليصارحوا بعضهم البعض في كلّ شيءٍ حتى في ما يجرح، لأننا قد نحتاج إلى أن نُخرج بعض الدماء السوداء ليبقى الدم صافياً نقيّاً في احمراره النقي.

إذا بقينا نتكاذب ونتجامل، فإننا سوف نجعل المشكلة أكثر تعقيداً. لا مقدّسات في الحوار، حاوروا بعضكم البعض في كلّ شيء، شرط أن يكون الحوار موضوعيّاً عقلانيّاً مرتكزاً إلى تقوى الله باتجاه الهدف الكبير ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران : ١٠٣]. هل نأمل ذلك؟ إنّني أرى أن التجمّع دينٌ يُدان به، فهل لنا أن نفتح عليه ونقوّيه ونعمّقه ونمتدّ به، فلعلّه يمكن أن يكون بجهدنا وإخلاصنا وتعاوننا بعض السبيل لإيجاد صورة للوحدة الإسلاميّة.

علينا، في كلّ هذه المشاريع وفي كلّ هذه الكلمات والنظريّات عن الوحدة الإسلاميّة، أن نقدّم نموذجاً صالحاً لها، ولا سيّما في دائرة العلماء الذين كان للبعض منهم الدور الأساس في إسقاطها.

دعونا نجعل هذه التجربة القائمة تتأسّس على الصدق، فيكون العلماء مع الوحدة الإسلاميّة في داخلهم وخارجهم، ولا يكون لنا شياطين نتكلّم معهم بطريقة تختلف عمّا نتكلّم به مع الملائكة. لنبقَ مع الملائكة، وإذا عشنا مع الشياطين، فلنعمل على أن نحوّلهم إلى ملائكة ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة : ١٠٥]، ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء : ٩٢]، متمسّكين بخطّ التوحيد ووحدة الأمّة ووحدة السير إلى الله.





تأمّلات في خطّ التقريب والوحدة

لماذا التقريب في حركة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة؟

هل هو عنوان ثقافيّ للوصول ـ من خلاله ـ إلى التبادل الفكريّ العلميّ بين المسلمين، ليعرف كلّ فريق فكر الفريق الآخر، ولتتحقّق بذلك النتائج المرجوّة في نظرة كلّ واحد منهما إلى الآخر، على قاعدة الاختلاف في الاجتهاد المرتكز على النظريّة الكلاميّة والفقهيّة، مع الحفاظ على قاعدة الوحدة في نطاق الإسلام، بما يجعل المسلمين يتعرّفون على بعضهم البعض ويعترف بعضهم بالبعض الآخر؟!

وهل هذا هو كلّ شيء في المسألة، باعتبار أنَّ المشكلة التي كانت مطروحة هي جهل المسلمين ببعضهم البعض في ما يملكون من الرأي أو يأخذون به من المذهب، وفقدان الرؤية الواضحة في القاعدة الاجتهادية التي ينطلق منها هذا أو ذاك، ليكون الحكم المتبادل بينهم هو التكفير والتفسيق ونحو ذلك، الأمر الذي يجعل الاختلاف المذهبي في الوعي الإسلامي العام يساوي الاختلاف الديني، وتكون النتيجة هي المزيد من التمزّق والانحلال والانطلاق في متاهات الجهل والتخلّف الفكريّ والاجتماعيّ والسياسي؟

أو أنّ التقريب حركة فكريّة تنطلق من العنوان الثقافيّ من أجل إثارة علامات

الاستفهام التي يطرحها المحاور على صاحبه، ليجد فيها ما يصلح كوجهة نظر تثير التفكير في الجانب الآخر من الفكرة التي تستحقّ الحوار الذي يوضح الموقف ويبلور الرأي ويتّجه بالمسألة المختلف عليها إلى المزيد من الوضوح لدى كلّ واحد من المذهبين، وذلك باعتماد أسلوب علميّ يقدّم التفاهم والانفتاح الفكريَّين، بحيث تكون النتيجة هي التحرّك من خلال هذا المنطق نحو تقريب الأفكار والتنازل عن الكثير من الهوامش المحيطة بالموقف والزوائد البعيدة عن الموضوع، بما يجعل الجميع وجهاً لوجه أمام العناصر الأساسيّة للعقيدة أو للشريعة أو الخطّ الفكريّ أو الفقهيّ الممتدّ في خطوط الكتاب والسُّنة، الأمر الذي يضيّق مساحة الخلاف ويبرز عناصر الوحدة الفكريّة العقيديّة والفقهيّة في ساحة الحوار، فيأخذ بها المتحاورون، ويكون الرأي واحداً في ما يختلفون فيه ما دامت الحقيقة هي رائد الجميع؟

وبذلك يكون الهدف الأسمى من التقريب هو الوصول إلى قاعدة الوحدة، لأنَّ استمرار الخلاف بين المسلمين يحرّك التعقيدات الذاتيّة والموضوعيّة في عملية إثارة دائمة تقود الجميع إلى الموقف الحادّ الملتهب بالمزيد من الحساسيّات الحادّة والمشاعر المتوتّرة التي تجعل الوجدان في حالة ضبابيّة تمتدّ إلى أكثر من موقع في الساحة، لتثير أكثر من مشكلة وتحرّك أكثر من فتنة على مستوى الواقع الإسلاميّ كلّه.

الطريق العقلانيّ القويم

إننا نتصوّر أنَّ القيمة الإسلاميّة في حركة التقريب، تتمثّل في كونها الطريق العقلاني القويم في الوصول إلى الوحدة بين المسلمين، فهي في تركيزها الخلاف على قاعدة من التفكير المنفتح، تحوّل المذهبية الطائفية التي تستغرق

في داخل مشاعرها المتوتّرة وأفكارها الضيّقة، إلى مذهبية فكريّة واعية تنفتح على الفكر الآخر في المذهب الآخر، ليقف أصحاب المذاهب المتنوّعة في إخلاصهم لمذاهبهم في خطّ الالتزام الذي يحوّل الفكرة إلى حالة وعي في الموقف، بدلاً من أن تكون حالة عقدة في الذات تنتمي إلى دائرة التعصّب حيث لا يتنفّس الانتماء أجواء الفكر.

إننا لا نزال في مواقفنا الجامدة التي يتعقّد فيها كلّ مجتمع مذهبي من أيّ شخص يحاول تفهّم المذهب الآخر كما لو كان ذلك مماثلاً لتغيير دينه، وتكون النتيجة المزيد من القسوة في الموقف السلبي من الشخص الذي يخضع لهذا التغيير في ذاته، فنلاحظ ـ في هذا الجوّ ـ أنَّ المسلمين السُّنة يواجهون الناشطين في خطّ الوحدة الإسلاميّة من الشيعة بأنّهم يريدون إدخال السُّنة في التشيّع، كما أنّ المسلمين الشيعة يتّخذون الموقف نفسه من السائرين في هذا الاتجاه ـ الوحدة ـ من أهل السُّنة، بأنّهم يريدون إدخال الشيعة في دائرة التسنّن، وهو ما يعني أنَّ التشيّع والتسنّن قد تحوّلا إلى حالتَين في التنظيم الاجتماعيّ الطائفيّ بدلاً من أن يكونا حالتَين فكريَّتَين في فهم الإسلام.

وربّما نجد النظرة السلبيّة ذاتها، في ما يمكن أن يلتزمه العالِم الشيعيّ من بعض الآراء السُّنية في الفقه أو الكلام، في المجتمع العلميّ الشيعيّ، أو في ما يمكن أن يلتزمه عالِم سنّي من بعض الآراء الشيعيّة في المجتمع العلمي السنّي، كما لو كان ذلك يمثّل حالة انحرافيّة في المذهب، لأنّه تحوّل إلى حالة منحطّة لا حركيّة فيها ولا حيويّة في عالم التغيير الفكري، فلا ينظر إلى ما يملكه من الحُجّة على رؤية الجديد، لأنّ الجميع يختزنون في داخلهم معيّة المذهب في اجتهاده، مع أنَّ أيّة حالة اجتهادية، في أيّ مضمون فكريّ، في أيّ جانب من جوانب الخلاف الكلاميّ والفقهيّ، لا بدَّ أن تكون خاضعة للجدل الدائم، باعتبار أنّها

قابلة لاحتمالات الخطأ والصواب بحسب طبيعتها الذاتية أو الموضوعية.

وفي ضوء ذلك، فإنَّ حركة التقريب لم تنجح في تغيير ملامح الشخصية المذهبية المتحجرة أمام الأسوار التي يضعها المجتمع في الدائرة الخاصة داخل هذا المذهب أو ذاك، في الوقت الذي استطاعت أن تنجح في تحطيم الجمود النفسي في انفتاح البحث على المذهب الآخر في الأسلوب المتعارف في الكلام والأصول والفقه وفي تفسير القرآن، فنحن نرى أنَّ المنهج العلميّ الإسلاميّ بدأ يأخذ الاتجاه الموضوعيّ في دراسة المذاهب المتنوّعة، بفعل أجواء التقريب التي أعطت الواقع الإسلاميّ الثقافيّ مناخاً جديداً في الواقع النفسيّ والاجتهاديّ، كما أنّ المناهج الحديثة للبحث ساعدت على ذلك، فقد انطلقت المناهج السليمة المرتكزة على الطريقة الموضوعيّة في البحث في مختلف فنون العلم، وأصبح المنهاج الذاتيّ يمثّل عملاً غير علميّ في حركة النقد العلمي.

وإذا كنّا نتحدّث عن التحجّر في الشخصيّة المذهبيّة لعلماء المذاهب ومثقّفيهم، فإننا نتحدّث عن المسألة في حجم الظاهرة الاجتماعيّة العامّة، لكنّنا لا ننكر وجود أفراد هنا وهناك ممّن يملكون حريّة الفكر وعقلانيّة البحث، ومسؤوليّة الموقف في الانتماء الذي لا يعيشه الإنسان كحالة ذاتيّة جامدة، بل يعيشه كحالة فكريّة متحرّكة صالحة للتحاور والتفاعل، وقد استطاع المناخ العلمي العام أن يلعب دوراً فاعلاً في هذا الاتجاه، إضافة إلى مناخ التقريب، كما ألمحنا إلى ذلك آنفاً.

الدائرة الضيّقة

إنّنا نحاول ـ في هذه التأمّلات السريعة ـ أن نشير إلى نقطة حيويّة جداً، وهي أنَّ التقريب قد استطاع أن ينجح في إيجاد نوع من التفاهم على أساس عرض المذاهب المختلفة في الأبحاث الكلاميّة والفقهيّة، ولكن الموقف لا يزال في

غالب منهجه يتحرّك في الدائرة المذهبيّة الضيّقة. فهناك فقه سنّي متميّز في أصوله وفروعه وأسلوبه، وهناك فقه شيعيّ منفتح على القواعد الاجتهاديّة الشيعيّة في الأصول والفروع والأسلوب، وهذا الواقع يؤكّد الفواصل بين المذهبين في المضمون والشكل، بحيث يؤدّي إلى وضع نفسيّ يوحي بالانفصال الحادّ في الذهنيّة المذهبيّة بالطريقة التي تمنع اللّقاء.

إنَّ رسالة التقريب ـ في خطّ الوحدة ـ في ما نتصوّر، هي في إيجاد فقه متجانس يؤكّد فيه الفقهاء من هنا وهناك، بالبحث الأصولي الذي يرتكز على الاجتهاد، على الأسس المشتركة التي يتّفق عليها الجميع في قواعد الأدلّة ومصادر الشريعة، بحيث ينطلق الحديث فيه بالأسلوب الإسلامي الذي يستنطق هذا المصدر أو ذاك دون عقدة ذاتيّة أو صفة مذهبيّة.

فإذا انطلقنا من كتاب الله كمصدر أساسي للتشريع، فإنَّ علينا أن ندرسه في نصوصه وظواهره، ومحكمه ومتشابهه، وعمومه وخصوصه، وإطلاقه وتقييده، وناسخه ومنسوخه، بالذهنيّة العلميّة المجرّدة الخاضعة للفهم العامّ الشامل الذي يستنطق كلّ المذاهب كوجهات متنوّعة في المسألة الأصولية، بعيداً عن حساسيّة الخصوصية التي قد تثير التعصّب لهذا الدليل أو ذاك، باعتبار أنّه مرتبط بهذا المذهب أو ذاك، ما يدفع علماء المذهب لتأكيده والدفاع عنه بأيّ وجه كان، لأنّ قواعد المذهب تتبنّاه، وهو ما يبعد البحث العلميّ عن الموضوعيّة ويدفع النتائج بعيداً عن التوازن.

القياس كنموذج

ولنقدّم القياس كنموذج لهذا المنهج، فإنّ الفقهاء الذين قبلوه والذين رفضوه، لم ينطلقوا في هذا الرأي أو ذاك من منطق مذهبيّ حاد في المسألة الذاتيّة، بل

انطلقوا في الرفض من دائرة التنوّع المذهبي، فهناك الرافضون له من أهل السُّنة كأتباع المذهب الظاهريّ، إلى جانب الرافضين له من جمهور الشيعة، وهناك القابلون به عند بعض علماء الشيعة، كابن الجنيد، ملتقين بذلك مع جمهور أهل السُّنة، ما يجعل المسألة بعيدة عن الحدّة في الخطّ الحاسم في هذا الجانب أو ذاك.

فإذا وقفنا مع الأدلّة التي يقدّمها هذا الفريق أو ذاك على صحّة مذهبه، فإنّنا نجد حركة المنهج هنا وهناك تتّجه نحو استنطاق المصادر العامّة للتشريع دون خصوصيّة ذاتيّة، ويسمح هذا الجوّ بإثارة النقد العلميّ للاستدلال بهذا المصدر على الإثبات أو النفي بطريقة عامّة مجرّدة، كما لو لم تكن المسألة في ذاتها متّصلة بالخلاف المذهبي الحاد. وفي الحقيقة، فإن قضيّة دلالة هذه الآية أو تلك على حجّية القياس أو عدم حجّيته، ليست مسألة ذات علاقة بالمذهب في أصوله الفكريّة، بل هي مسألة تفصيليّة في فهم الظواهر اللّفظية للقرآن من خلال قواعد اللّغة العربيّة في استفادة المعنى من اللّفظ بعيداً عن أيّة خلفيّة ذهنيّة سابقة. وهكذا نلتقي بالسُّنة التي اعتمدها مثبتو القياس دليلاً، فإنَّ من الممكن الاتفاق على قاعدة النقد للنصّ الوارد في نطاق السُّنة في خطّ المنهج في محاكمة السند من أجل توثيق الحديث ليكون حُجّة على السُّنة، واستنطاق المتن من أجل استظهار المعنى منه، والأمر يقف فيه الجميع أمام الدليل المطروح في موقع واحد تتوافر فيه عناصر النفي والإثبات في مواجهة الفكرة لدى الطرفين.

وإذا كان العقل هو الأساس في المسألة، فإنّ الأسس العقليّة لا تختلف بين مذهب وآخر في إدراكات الناس لها في مقاييس الصحّة والفساد.

ومن الملاحظ أنّ المسألة التي أخذت البعد الواسع من الجدال في القياس، تتّصل بمدى حجّية استنباط العلّة الظنّية التي هي الأساس في انتقال الحكم

من الأصل إلى الفرع، لأنَّ العلة المنصوصة أو القطعية ناقلة للحكم بالاتّفاق، ولذلك كانت الخلافات تتركّز حول الدليل على حجّية هذا الظنّ، لأنَّ الظنّ لا يملك في ذاته العنصر الذاتي للحجّية، ما يفرض على الباحث عن حجته الإتيان بدليل يؤكّد قيمته في الموازين العلمية المقررة.

حتى أنَّ الشيعة الذين ينقلون الحديث السلبي حول القياس عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)، الذين هم المعصومون عندهم، في الكلمة المأثورة «أنّ السُّنة إذا قِيست مُحِقَ الدّين»، وفي الوقت الذي يرون فيه الحجّية الحاسمة لِمَا يَرِد عنهم، يفهمون من كلمات الأئمّة القاعدة الأصولية التي تنطلق من عدم وجود أساسٍ للقياس من خلال فقدان العنصر القطعيّ في اكتشاف العلّة المشتركة، وذلك هو ما جاء في الحديث عنهم «أنّ دين الله لا يُصاب بالعقول»، ما يعني أنّهم لم يفهموا من أحاديثهم الجانب التعبّدي بل الجانب التحليلي، ما يترك مجالاً للجدل المتحرّك في الساحة العلميّة.

القاعدة الاجتهاديّة

وقد تكون القضيّة الحاسمة في تقريب الأساس الأصوليّ الذي ترتكز عليه حركة الاجتهاد الفقهيّ، هي في التوافق على الوصول إلى رأي مشترك أو متقارب حول الكتاب والسُّنة من حيث الخطوط العامّة لاستنباط الحكم الشرعي من القرآن، وتوثيق النصّ الوارد، فإنّ ذلك يجعلنا نواجه القاعدة الاجتهادية من موقع واحد، بحيث يكون الخلاف ـ لو حدث ـ على طريقة الخلاف بين أتباع المذهب الواحد، عندما يختلفون في ظهور الآية في هذا الحكم أو عدم ظهورها، أو في كونها منسوخة أو غير منسوخة، أو في إمكانيّة الخروج عن الظاهر القرآني بالنصّ الحديثي في دائرة العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والحقيقة والمجاز،

باعتبار أنَّ الجميع متّفقون على البعد عن مخالفة كتاب الله: «**فكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف**»[1]، ما يُدخل المسألة في إطار يتّصل بطبيعة هذه المخالفة للكتاب، فهل الخاص الحديثيّ مخالف للعام القرآنيّ أو لا؟!

في المقابل، لم تكن السُّنّة في أيّ حال من الأحوال موضع جدل في حجيّتها، ولكنَّ الجدل كان في حجيّة الطريق إليها، من قبيل تركيز البحث حول حجيّة خبر الواحد أو عدم حجيّته، وحول شروط حجيّته، وعمّا إذا كانت العدالة تدخل في عدادها، ليكون الفسق العمليّ عنصراً سلبياً في حجيّته، أو الوثاقة كافية في المُخبِر، أو كافية في الخبر من حيث العناصر الداخليّة والخارجيّة التي توحي بالوثاقة.

إنّ الإجابة عن علامات الاستفهام المتقدّمة في مسألة حجيّة خبر الواحد، قد تحدّد لنا الخطّ العريض للاجتهاد في نطاق السنة الشريفة. فإذا عرفنا أنّ الأكثريّة هنا وهناك تكتفي بالوثاقة في المُخبِر أو في الخبر ولا تجعل العدالة شرطاً، فإنّ النتيجة هي أنَّ من الممكن للمجتهد الشيعي أن يأخذ بخبر الثقة السني، كما أنَّ من الممكن للمجتهد السُّني أن يلتزم خبر الثّقة الشيعيّ، لأنَّ مسألة المذهبية لا ترتبط بالوثاقة بل بالعدالة.

وتبقى المسألة في إيجاد الأسس للتوثيق هنا وهناك في شهادة العلماء، أو في دراسة تاريخ هذا الراوي أو ذاك، ممّا يمكن أن نتفق فيه على خطوط معينة في الجانب التطبيقي، لأنَّ الوثاقة أمرٌ عقلانيّ لا تعبديّ، فيمكن الرجوع إلى السيرة العقلانيّة أو إلى بناء العقلاء في تحديد الأسس الواقعيّة للوثاقة في الخبر أو المُخبِر، ممّا يتعارف السير عليه في حياة الناس العامّة والخاصّة، وبذلك يمكن أن يدخل الباحث الشيعيّ في حوار مع الباحث السُّني حول أحد رواة أهل السُّنة

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ١٣١، ص: ١٣٤.

في ميزان الوثاقة، كما يمكن للباحث السُّني ممارسة ذلك في بعض رواة الشيعة. فلا يتوقّف هذا أو ذاك عند الخصوصيّة السُّنية أو الشيعية في حساسية الرأي، بل ينطلقان مع المنهج الموضوعيّ في التوثيق، وربّما كان هذا النهج أقرب السبل للوصول إلى الخطّ المشترك في الموضوع.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن تكون المصادر الحديثيّة لأهل السُّنة أو الشيعة مصادرَ للشيعة أو السُّنة في عمليّة الاستنباط، ولو بشكل جزئيّ، من خلال الأخبار التي يرويها الثقاة هنا وهناك.

تطوّر الفكر الإسلامي أمام التحديات

لا تمثّل المسألة المذهبية شأناً داخلياً لأتباع هذا المذهب أو ذاك، بحيث يختصّ أصحابه بالبحث في قضاياه الفكريّة العقيديّة، أو القانونية الفقهيّة، فلا يُسمح للمتابعين لمذهب آخر أن يبحثوها بطريقتهم الخاصة، باعتبار أنَّ ذلك لا يدخل في اختصاصهم العلمي.

إنّ المذهبيّة في الدائرة الإسلاميّة تمثّل وجهة نظر خاصّة في فهم الإسلام في دائرته العقيديّة والعلميّة، من خلال الاجتهادات الخاضعة لأصول علميّة مفتوحة مشتركة بين العلماء المتخصّصين في الكلام والفقه.

وقد تكون قيمة البحث المذهبيّ المتبادَل المفتوح، أنّه يحرّر الباحثين من الاستغراق في الذات المذهبية التي تخضع للرغبة الدائمة في تبرير مذهبها والتنديد بالمذهب الآخر من ناحية ذاتية دون اعتبار للحياد العلمي، بينما يتحرّك المنهج المنفتح لمواجهة القضيّة في البحث كقضيّة إسلاميّة موضوعيّة في عناصرها الحية التي تتجاوز الخصوصيات إلى الخطّ العام للحقيقة الحاسمة، وبذلك نصل إلى الفقه الإسلاميّ الواسع الشامل الذي لا يلتزم في أبحاثه إلا

الخصوصيّة الإسلاميّة في طبيعتها ومصدرها، لتكون المذهبيّة هنا وهناك قولاً من الأقوال وتفصيلاً من التفاصيل، ولتكون صفة العلماء في الدائرة الإسلاميّة من خلال عنوانهم الإسلاميّ كعلماء مسلمين، لا في الدائرة المذهبيّة كعلماء سنّة أو شيعة، فالأمر يتجاوز روح التقريب إلى روح الوحدة من خلال الجانب الإيحائي الذي يتحوّل إلى جانب موضوعي شامل.

نحو واقعٍ تقريبيّ

وقد يكون من الضروريّ للعاملين في التقريب أن يتحرّكوا في إيجاد واقع تقريبي على الصعيد الشعبي، فلا تقتصر حركة التقريب على النخبة المثقّفة من العلماء المسلمين الذين يُراد لهم الانفتاح على وجهات النظر المختلفة بين المسلمين فكرة ومنهجاً ودليلاً، بل يمتدّ إلى الواقع الإسلاميّ الاجتماعيّ العام في الخطاب التربويّ والوعظيّ والتوجيهيّ، بحيث تنطلق مفرداته في تحريك العناوين المشتركة بين المسلمين في العبادات والمعاملات والعلاقات، وفي خطوط العقيدة وحركة المنهج، إلى جانب العناوين المذهبيّة الخاصّة، ليتعرّف الناس إلى عمق الصفة الإسلاميّة الجامعة بينهم في خطوطها العامّة، قبل أن يتعرّفوا إلى ملامح الصفة المذهبيّة، لأنّ فائدة هذا الأسلوب، أنّه يثقّف الناس بأنّ التنوّع لا ينافي الوحدة، وأنّ الوحدة في القاعدة الفكريّة لا تتنكّر للتنوع في التفاصيل، وليتعلّم هؤلاء كيف يتقبّلون الموعظة العامّة من الشخصيّة المنتمية إلى هذا المذهب ومن الشخصيّة الأخرى المنتمية إلى المذهب الآخر، دون تعقيد نفسي، كما ينفتحون على إيجابيات هذا الفريق وذاك الفريق، فإنَّ الموقف الرافض للشرعية في موقع هذه الجهة، لا يمنع من الانفتاح عليها بما يتّصل بالمواعظ المشتركة، والأخلاق القويمة العامّة، والمواقف الصحيحة، ولو بشكل جزئي.

إننا نلاحظ أنَّ هناك خطّة تجهيليّة في التربية المذهبيّة الإسلاميّة، تخطّط لإبعاد المسلمين بعضهم عن بعض، بالتأكيد على مواقع الخلاف بدلاً من مواقع الوفاق، وبالتركيز على السلبيات بشكل مطلق، من خلال تقديم صورة الفريق الآخر بطريقة مشوّهة، مقابل الاستغراق في الإيجابيات المطلقة من خلال تقديم صورة الفريق الملائم بطريقة محبّبة، وبالعمل على منع الأحاديث التي تفتح الوعي المتوازن على الآخر، وقد أدّى هذا الأمر إلى أن لا يعرف المجتمع السني إلا القليل عن الشّيعة وبالعكس، ما يفسح المجال للخرافات التصوّرية أن تنفذ إلى الوجدان الشعبيّ في نظرته إلى خط التسنّن أو التشيّع بطريقة منحرفة، وإشاعة اتهامات التكفير والضلال التي تحرّكها الاتجاهات المتعصّبة أو المتخلّفة أو الأجهزة المخابراتية الكافرة والمستكبرة والضالّة، دون أن تجد أيّة ردّة فعل ضدّ هذا الأسلوب العدواني.

إنّ الثقافة التقريبيّة الوحدويّة لا بدّ أن تتحوّل إلى ثقافة شعبيّة عامّة فاعلة في الوجدان الوحدويّ العام، كما لا بدّ من الاشتراك في الممارسات العباديّة على مستوى صلاة الجمعة والجماعة، وفي المعاملات والعلاقات على صعيد الواقع القانونيّ الشرعيّ، لأنَّ ذلك كفيل بتقريب المواقف وتعديل الاتجاهات.

ونحن نتصوّر أنَّ المجتمعات المختلطة التي تتوزّع فيها الأفكار والمذاهب، سوف تساهم إلى حد كبير بتوضيح الصورة وتبديل الأوضاع، وتحريك الكثير من علامات الاستفهام في اتجاه الرغبة في الوصول إلى أجوبة محدّدة حاسمة، ما يجعل القضيّة منفتحة على التعاون في الحصول على مواقع جديدة في ساحة التقريب والوحدة.

وقد نحتاج إلى التأكيد على هذه النقطة، عندما نلاحظ أنَّ هناك خطة مدروسة للاستكبار والكفر العالمِيَّين، تستهدف إيجاد المزيد من التعقيد في علاقات

المسلمين بعضهم البعض، وإبعاد المواقف المشتركة عن واقعهم الفكريّ والسياسيّ والأمنيّ والاجتماعيّ، وتحويل الخصوصيّات المذهبيّة ـ في صورتها المشوّشة الضبابيّة ـ إلى حواجز نفسيّة واجتماعيّة مانعة من اللّقاء على أساس الخطّ الإسلامي العام.

وتبقى الوحدة الإسلاميّة من الممنوعات السياسيّة لدى الاستكبار العالمي، فالتقارب بين المسلمين يمثّل خطّاً أحمر في السياسة الدوليّة السائرة نحو إسقاط مصالح المسلمين لحساب مصالح الدول الكبرى المستكبرة، وهو ما يجعل التقريب والوحدة عنوانين كبيرين في ساحة الصراع السياسي في مواجهة الاستكبار العالمي.

تكامل في الصّورة

وفي ضوء ذلك، لا بدّ من العمل على إيجاد تكامل في الصّورة في ما يحمله كلّ مسلم من الصّورة عن المسلم الآخر، لتجتمع لديه كلّ ملامحها السلبيّة والإيجابيّة، فإنّ ذلك هو الذي يقرّب الأفكار، ويفتح القلوب، ويوحّد المواقف، ويدفع الجميع نحو اللّقاء على الإسلام كلّه، من موقع الوعي لكلّ الخصوصيّات الداخليّة والخارجيّة، ويوحي بالحوارالإيجابي من خلال علامات الاستفهام التي قد تثيرها بعض ملامح الصّورة، الأمر الذي يركّز أساساً فكريّاً وعمليّاً وروحيّاً لأصالة الانتماء الإسلامي في شخصيّة الإنسان المسلم بكلّ شموليّة وانفتاح.

إنّ مشكلتنا في الواقع الإسلاميّ ـ على مدى العصور ـ هي في عدم وضوح الصورة من جهة، وتشويه بعض ملامحها من جهة أخرى، ما قد يخيّل فيه أنّ الكافر أقرب إلى هذا المسلم من المسلم الآخر، على طريقة اليهود الذين كانوا يتحدّثون عن المشركين فيقولون عنهم: ﴿**هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً**﴾

[النساء : ٥١]، انطلاقاً من الحقد المتعصّب والمانع لرؤية الجانب المشرق من الصورة، سيّما وأنّها لا تملك أيّة فرصة معقولة لإظهارها بفعل طبيعة العلاقات القائمة، بينما يملك الجانب المظلم كلّ الفرص في الحديث والإثارة والتأثير.

وهذا ما يجب على العاملين أن يلاحظوه انطلاقاً من خطّ العدل الذي قرّره الإسلام، سيّما في تأكيده على النظرة المتوازنة لكلّ من الأعداء والأصدقاء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ [المائدة : ٨]. ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ [الأنعام:١٥٢].

ضرورة الحوار وشرعيّة الثورة

وفي نهاية المطاف، ربّما كنّا بحاجة إلى البحث عن ضرورة الحوار السياسي المتحرّك في مواجهة التحدّيات الكبرى التي تعترضنا كمسلمين في خطّ الصراع، سواءً في النزاعات المتنوّعة بين الأنظمة والحركات الإسلامية، أو في المسائل المتعلّقة بالسلطة والحريّات، لاسيّما حريّة العمل الإسلاميّ السياسيّ من جهة، والخطّ العام للأنظمة الحاكمة في البلدان الإسلاميّة، أو في التأثيرات الكبرى للاستكبار العالمي والصهيونيّة العالميّة من جهة أخرى، وتبقى أهم التحدّيات تأكيد التزامنا الدور الفاعل للشريعة الإسلامية في حركة التشريع العامّة، لأنّ المسلمين الحركيّين يطرحون تطبيق الشريعة بينما يرفض الحاكمون ذلك.

أما القضية التي لا بدّ من إثارتها فقهيّاً وفكريّاً، فهي مدى شرعيّة الثورة على الحاكم الجائر، أو الحكم المنحرف عن خطّ الإسلام، وهل يجوز استعمال العنف ابتداءً في عمليّة التغيير، أو لا يجوز إلا كردّ فعل على العنف المفروض على الناس من قِبَل النظام، أو يكتفي المسلمون بالنّصح والموعظة والإرشاد، تاركين الأمور على حالها وللظروف الطبيعيّة الطارئة المحيطة بالموقف، باعتبار

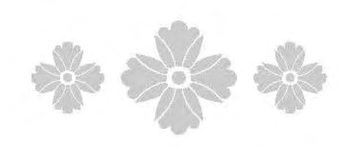
أنَّ الإسلام هو دين الرفق واللّين والحكمة والموعظة الحسنة؟! لا شكَّ أنّه لا يصحّ الاستناد إلى هذا الفهم الأخلاقي للدّين، وإن كان لهذه السّمات الأخلاقيّة دورها الفاعل في معالجة الخلافات الداخليّة المتحرّكة بين المسلمين.

وهكذا تتحرّك مسألة التقريب لتلامس المواجهة الحادّة بين المسلمين والمستكبرين الذين يفرضون على الواقع الإسلاميّ سيطرتهم الظالمة الخانقة في الجوانب السياسيّة والأمنيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، ليكون هامشاً من هوامش الواقع الاستكباريّ، ما يشلّ الدور الفاعل للمسلمين في تقرير مصيرهم، إلا بالطريقة التي تتناسب مع مصالحهم الكبرى الضاغطة على مصالح المسلمين العامّة.

والسؤال المطروح، هل العنف هو الأساس في خطّ المواجهة من خلال عنوان الجهاد الذي يحكم حركة الإسلام ضدّ التحدّيات الكافرة والمستكبرة، أو أن العنف ليس هو الأسلوب المطلوب تحريكه في خط المواجهة؟ وهذا ما قد يختلف الرأي فيه بين الشيعة والسُّنة من جهة، كما قد يقع الخلاف فيه بين الشيعة أنفسهم، أو السُّنة أنفسهم من جهة أخرى، وهو ما قد يؤدّي إلى الكثير من التعقيدات الأمنيّة والسياسيّة بين المسلمين، ويضعف الموقف الإسلامي في خطّ المواجهة بينه وبين الانحراف في الداخل والخارج، ويفسح في المجال للنزاع المذهبي والحركيّ في المجتمع الإسلامي، لأنّنا نلاحظ أنّ ظروف الصراع تثير المسألة الفقهيّة كمشكلة في ساحات الحركيّين والثائرين، سيّما عندما يتمّ التشكيك في شرعيّة موقفهم انطلاقاً من اختلافه مع الخطوط الإسلاميّة الأخرى. كما أنَّ الإعلام الاستكباريّ يعمل على توجيه الحملة بالطريقة التي تؤدّي إلى إرباك العمليّة التغييريّة في حركة المجاهدين، وتحريك المسألة المذهبيّة كما لو كانت الثورة خطّاً شيعيّاً ليكون الاعتدال خطّاً سنّياً أو العكس، أو توجيه الجدل

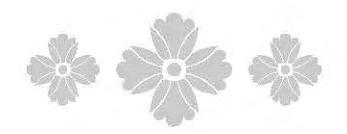
وبثّ الانقسام في داخل كلّ مذهب إسلامي، ليكون هناك خطّ تطرّف وخطّ اعتدال يتصارعان على أساس الخطّ الفقهيّ في دائرة السلب والإيجاب.

إنّنا نعتقد أنّ حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية لا بدّ أن تتطوّر لتواكب الفكر الإسلاميّ في معالجة التحدّيات الجديدة، ممّا قد يدور الجدل فيه بين المسلمين على أساس الاختلاف الفقهيّ أو الفكريّ في المفاهيم العامّة، لأنَّ ذلك هو الذي يمثّل التحدّي الحادّ الحاسم للواقع الإسلاميّ كلّه الذي يُراد له أن يسقط تحت تأثير الضغوط القاسية من قِبَل الكافرين والظالمين والمستكبرين في الداخل والخارج، والحرب الجديدة ضدّ الإسلام والمسلمين تحوّلت إلى حرب متعدّدة الأبعاد والمواقع والأهداف، والأمر يفرض على الجميع الاستعداد بكلّ الوسائل الفكريّة والعمليّة على أكثر من صعيد، ليأخذ التقريب بين المسلمين دوره الحركيّ الفاعل في ساحة الواقع، بدلاً من أن يكون مجرّد حالة ثقافيّة تجريديّة في دائرة الترف الفكريّ، فذلك هو الذي يطوّر الحركة، لتكون وسيلة من وسائل حركة القوّة في الإسلام في خطّ الحرية والعدالة والوحدة.





المحتويات



مسألة الوحدة
الإسلامية هي مسألة الإسلام
في خطّ الدعوة والحركة والواقع،
لأنّ نجاح الدّعوة يفرض خطّة موحّدة
تؤكّد التصوّر الواضح لعقيدة الإسلام
وشريعته ومنهجه وأساليبه وأهدافه...

الفقيه المجدِّد المرجع
السيد محمد حسين فضل الله
(رضوان الله عليه)

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين(ع)

لبنان ـ حارة حريك